حكايات للبنات

محمد المطارقي

أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع

٢٠٠٦/٢١٠٠٥

الترقيم الدولي .I.S.B.N

977-409-024-1

الناشر

مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع

المنصورة

ت: ٠٥٠/ ٢٣٣٥١٥٧

ف: ٠٥٠/ ٢٣١٠٢٢٢

٠٠٢/ ٠١٠١٧٨٦٠٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الْحَمْدَ لله تَعَالَىٰ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونَعُوذُ بِالله تَعَالَىٰ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ تَعَالَىٰ فَلَا مُضِلَّ لَه، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَه، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا الله، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُه، بلَّغ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، ونصحَ الأمَّة، وكشفَ الله به الغُمَّة، فتركنا علىٰ المحجَّةِ البيضاء، ليلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يزيغُ عنها إلَّا هَالِك، ولا يَتَّبعهَا إلَا كُلّ مُنِيب سَالِك.

ثُمَّ أمَّا بعد:

فإنَّ أصدقَ الكلام هو كلامُ الله تعالىٰ، وخيرَ الهدي هو هديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

- **هذا الكتاب (حكايات للبنات):**

أولاً: يعودُ الفضل في اختيار هـٰذا العنوان ـ بعد توفيق الله عز وجل ـ إلىٰ أخي الكريم، الأستاذ/ **سيد عبد الحافظ**، ناشر هـٰذا الكتاب، وصاحب مؤسسة أم القرىٰ، حين وجدته يقول لي: ما رأيك في كتاب يكون عنوانه **(حكايات للبنات)**، ويكون موجهاً لبنات العشرين وما دونها.

ووجدتني معجباً جداً بهـٰذا العنوان، فهو ـ بجانب كونه (حكايات) ـ وهي من اللون المحبب إلىٰ نفسي، باعتباري في الأصل أحد كتَّاب القصة ـ وجدتُه أيضاً يشتمل علىٰ كلمة **(البنات)** وهن زهراوات القلوب، ورياحين الحياة.

ترددتُ كثيراً، كيف تكون المادة المقدمة، علىٰ أي شكل يتم عرضها؛ لأنَّه لم يكن قد تبلور في ذهني موضعاً بعينه.

قلتُ: **(حكايات للبنات)** نستعرض فيه نماذج حيَّة من نساء فضليات، منذ العهد

النبوي، كبعض زوجات النبي والصحابة، والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين - مروراً بنساء العرب، ومواقفهن العجيبة، والتي صارت مضرب الأمثال لكل الأزمان.

ما المانع لو احتوىٰ الكتاب - مثلاً - علىٰ حكايات لبعض النساء التائبات من بنات عصرنا، واللاتي وجدن طريق الهداية في اعتناق دين الله عز وجل، والتمسُّك بهدي رسولُ الله ﷺ.

* * *

قلتُ: الكتاب **(حكايات للبنات)** سيحمل نماذج رائعة لنساء فضليات، ومواقفهن مع أولادهن وأزواجهن. وهـٰؤلاء الشهيرات في مجالهن، واستطعن أن يقدمن للبشرية أعمالاً جليلة حتىٰ يكنَّ قدوة ومثلاً مضيئاً لكل فتاة طموحة تبغي الكد والاجتهاد، فلا تكن النماذج الرديئة المنتشرة في واقع الحياة من التافهات، والعاريات والعلمانيات هنَّ القدوة.

ولكن، لا أخفي عليكم، لقد صرت ما يقرب من عدَّة أشهر وأنا أُقَلِّب عنوان الكتاب علىٰ جوانبه المختلفة. فالكتاب **(حكايات للبنات)**، وهو - كما قلت آنفاً - من العناوين المحببة إلىٰ النفوس.

وأخذتني الْـحَيْرَةَ كثيراً؛ إذ لا بد أن يكون ثمة تناغم وانسجام بين مادة الكتاب والعنوان. ووجدتني أعرض الأمر علىٰ بعض الأصدقاء. فوجدتُ البعض يرحب بالفكرة ويمدني بالمصادر والكتب التي تعينني علىٰ الكتابة، أمثال: الأخ الكريم/ **عادل يوسف**، والأخ العزيز/ **السعيد البسيوني**، والزميل/ **خالد يوسف المجدوب**، والأخ/ **عبد المجيد سلامة**.

كما لا يمكن أن ننسىٰ صاحب الفضل الكبير، والذي كان من المفترض أن يكون شريكاً لي في مادة هـٰذا الكتاب، وهو الكاتب البارع، والفنان التشكيلي المتميز

والمعروف، صديقي العزيز/ **عبد الرحمن بكر**، صاحب الأفضال الكثيرة، والذي لا أعرف ماذا يمكن لي أن أفعل معه. فهو من النماذج الطيبة، السمحة التي تطمئن القلوب بأن الدنيا لا تزال بخير، وأنَّ هناك رجالاً يحبُّون لغيرهم ما يحبُّون لأنفسهم، ويشعرون بالسعادة حين ترتسم السعادة على وجوه الآخرين. إنَّه يذكّرني بحديث النبي ﷺ: «**لا يُؤمِنُ أحَدكم حَتَّى يُحِبّ لأخيهِ ما يُحِبّ لِنَفْسِهِ**»، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**... وأحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمناً...**» له مني جزيل الشكر والعرفان، فهو كم له علينا من حقوق؟ ندعو الله ـ سبحانه ـ أن يوفقه دائماً لفعل الخير، وأن تكون أعماله في ميزان حسناته، ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [**الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩**].

هكذا علَّمنا النبي ﷺ في حديثه الشريف: «**مَنْ أسْدَى إليْكُمْ مَعْرُوفاً فكافئوهُ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا ما تُكَافِئونَهُ بِهِ فَادْعُوا اللَّهَ له حَتَّى تَجِدُوا أنَّكُمْ قَدْ كافَأْتُمُوه**».

* * *

بعث صديقي/ عبد الرحمن بكر من خلال (النت) أكثر من ألفي حكاية عن البنات. وابتدأتُ الكتابة بالفعل، ووجدتني أبدأ بحكايتين، هما: (شريط فيديو)، و(ضحية الفن)، وهما من الحكايات التي وصلتني على الإيميل، ثم وجدتُ أن نبرة الوعظ والإرشاد عالية في معظم الحكايات، وأنني لا بد حتماً سأرتدي مسوح الوعاظ، وهذا ليس عيباً في ذاته ـ معاذ الله ـ لكن هذا اللون من الفن له رجاله المعتبرين، الذين يملكون زمامه جيداً.

أمَّا أنا، فقبل كل هذا وذاك، (**قاص**) تعلَّمت على مدار عمري بأندية الأدب، ومن رواد هذا الفن أنَّ اللغة المباشرة والنصائح الموجهة، هما من ألدّ أعداء الفن القصصي؛ حيث إنَّ القصة يجب أن تقدم إلى القارئ بلغة إيحائية، وبطريقة التلميح وليس التصريح، وعلى القارئ الفطن الواعي، أن يفهم ما وراء السطور، بل لا بد

أن أترك لقارئي مساحة يستطيع أن يكون شريكاً لي في الكتابة؛ ليحدث نوعاً من المشاركة الإيجابية، ويتولَّد نوعاً من التفاعل والانفعال.

ووجدتني أتناول الحكايات مرغماً بشكلها الذي كتبت به، محاولاً ـ قدر الإمكان ـ الابتعاد عن المباشرة الوعظية، مستخدماً تقنية القصة من حيث الأسلوب، وطريقة التناول، وإن لم تصلْ بالطبع إلىٰ مستوىٰ القص بمعناه الفني المعروف.

ووجدتني أتعرض لبنات اليوم تحديداً، وأتلمس مشاكلهن وأحلامهن.

* * *

إنَّ التقنيات الحديثة، المبهرة جداً، والتي دخلت حياتنا بسرعة مذهلة، كانت إحدىٰ العوامل الأساسية المؤثرة في شخصية البنت، وترتب علىٰ تلك العوامل أنواع من المشكلات لم تكن موجودة في حياتنا من قبل.

ونحن لا يمكن أن نشير بأصابع الاتهام جميعاً إلىٰ هٰذه التقنيات، فإنَّها لغة العصر، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننفصل عن هٰذا الواقع، أو نسبح عكس التيار، لكننا يجب أن نعلم جيداً أنَّ لكل جيل ظروفه الخاصة، ولكل زمان آلياته ومستجداته التي تناسبه، وعصرنا هٰذا يغلب عليه التقنيات الفائقة، ونظام العولمة بكل ما يحمل هٰذا اللفظ الضخم المخيف من معنىٰ.

ونحن إذا كنا قد تعرَّضنا لبعض الجوانب السلبية في حياتنا، فليس هٰذا معناه أننا لا نتهم الأجهزة الحديثة والتكنولوجيا، ونطالب بأقصىٰ العقوبة لها وهو الإعدام، والعودة مرة أخرىٰ إلىٰ القرون الماضية، لا. لكننا نأخذ من تلك المستجدات ما يخدم حياتنا وينفعنا في ديننا ودنيانا، والإسلام وهو دين الله ـ عز وجل ـ لكل الأزمان والعصور، لا يقف ـ كما يدَّعي بعض الجهَّال من مُدَّعي الثقافة ـ حجر عثرة في طريق العلم، لا، وإنَّما نحن جزء من هٰذا العالم، نشارك في صنعه، شئنا أم أبَيْنَا. وهي فرصة سانحة لأصحاب العقيدة الصحيحة والفهم

السليم، أن يعلنوا عن أنفسهم، ويرفعوا راياتهم بإقامة الحجَّة والدليل على صحة معتقدهم، بالوسائل الحديثة، فإنَّ للباطل ألف ألف وجه، كل وجه يدَّعِي أنَّه الحق. أمَّا الحق، فإنَّه أبلج إذا أطل برأسه انزوت كل الأباطيل وفرَّت إلى جحورها المظلمة. إنَّنا نطلق جرس إنذار، لتلك الفتاة الصغيرة التي ربما تتعامل مع الواقع بنوع من البراءة أو السذاجة، دون أن تنظر إلى جانبه المظلم.

* * *

ونحن نعيش مشكلات البنات وهمومهن، وأحلامهن. كان علينا أن نجمع أكبر قدر من المعلومات، وكان أغلبها من الجرائد والمجلات (صفحات الحوادث، والمشكلات العاطفية)، مثل: جريدة الأهرام، والأهرام المسائي، وجريدة أخبار الحوادث، والمساء، ومجلات نصف الدنيا.. وغيرها. فضلاً عن متابعتنا لكثير من القضايا التي يتم طرحها من خلال التلفاز بقنواته المفتوحة، أو الإذاعة.

كما أنَّ هناك حكايات حدثت مع أصدقاء لي، أعرفهم جيداً، وحكايات رواها لي آخرون. واستعنتُ بالكثير من الكتب التي تحكي عن حوادث واقعية حدثت بالفعل لبناتنا.

في الحقيقة، إنَّني تعاملت مع هٰذا الكتاب بحبّ شديد، وحاولتُ ـ قدر الإمكان ـ أن أكون قريباً من القارئ، رافعاً راية الخطر من قضايا، مثل: «المخدرات، الزواج العرفي، العلاقات الجنسية والعاطفية».. وغيرها من القضايا.

كما أبرزتُ جوانب مضيئة في حياتنا، متمثلة في نماذج رائعة لبنات عفيفات، ومثقفات، يحلمن بحياة أفضل رغم قسوة الواقع والظروف المحيطة بهن.

لا أقول: إنَّ هٰذا الكتاب **(حكايات للبنات)** قد وصل إلى الدرجة الْمُبْتَغَاة، فإنَّ الكمال لله وحده، والعصمة لرسوله ﷺ.

ولا يسعني في النهاية إلا أن أشكر كل من ساعدني في جمع هٰذه المادة أو

مناقشتها، وأخصّ هنا: صديقي الفنان الدكتور/ **عماد شاهين**، والصديق الرائع، صاحب القلب النقي، المخلص دائماً الدكتور/ **أحمد الماشي**.

وكل الشكر والتحية من قلب مُفعم بالحب والمودة والإخلاص، إلىٰ زوجتي العزيزة «**سماح مرسال**»، والتي كانت ـ دائماً ـ أول قارئة لي، واستفدتُ كثيراً من آرائها ونصائحها، متعها الله بالصحة، وجزاها عنا خير الجزاء.

كما أوجه شكري إلىٰ الإخوة القُرَّاء، والبنات بوجه خاص، وأنا في انتظار رسائلكم جميعاً.

وأخيراً:

هٰذا كتاب، أدعو الله العليّ القدير، أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعنا به في الدنيا والآخرة، وأن يهدينا دائماً إلىٰ طريق الرشاد، وأن يسامحنا علىٰ زلّاتنا وهفواتنا. إنَّه ـ سبحانه ـ قدير مجيب الدعاء.

سبحان ربّك رب العزة عما يصفون، وسلام علىٰ المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلَّىٰ اللهم وسلّم وبارك علىٰ سيد الخلق أجمعين، محمد ابن عبد الله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

* * *

محمد عبد الظاهر المطارقي
عضو اتحاد كتّاب مصر
ش المرشدي ـ الرجبي ـ المحلة الكبرى

على نغمات المجهول

على نغمات المحمول

لم يغمض لها جفن، تتوقع بين لحظة وأخرىٰ أن تردد نغماته الشجية عبر الهاتف المحمول، إنَّها نغمات مميزة خاصة به هو.

في البدء، كانت تشعر بالضيق والغضب من ذلك المتطفل البغيض، الذي يصرّ علىٰ إزعاجها كل ليلة. مع مرور الوقت، اعتادت علىٰ نغماته، بل وصارت تنتظرها، ولما تغيبت عنها فترة، راحت تسأل نفسها: تُرَىٰ هل وجد ما يشغله؟ أيكون قد نسيها. ثم تهز رأسها قائلة: «وما أدراني، إنَّه شاب، لعلها فتاة تظن أنني شاب وتحاول معاكستي».

لكن هاجس بداخلها كان يؤكد أنه شاب، بل ووسيم أيضاً، مؤكد أنه علىٰ قدر كبير من الوسامة وخفة الظل، وإلا ما استمر طوال هـٰذه المدة يبعث إليها بنغماته الشجيَّة التي تهتز لها أوتار قلبها.

كل ليلة، وفي نفس التوقيت بالضبط، كانت تنتظر، ولم يكذب قلبها، فقد جاءتها النغمات السحرية والتي خصصتها له. رقص قلبها طرباً، وأمسكت بالهاتف وردت عليه برنة سريعة مقتضبة، ثم أغلقت الباب.

عاود الاتصال، لكنها لم تستطع أن تفتح الخط، مع إلحاحه فتحت لتسمع صوته لأول مرة، كانت مرتبكة، لكنها تمالكت نفسها وقالت بحدَّة:

«أنت إنسان غير مهذب، وسوف ألقنك درساً في الأدب واحترام الآخرين»!!

لكنه ـ بذكاء ـ استطاع أن يدفعها للصمت لحظات، راح يحدثها عن شوقه العارم نحوها.

قالت في صوت هادئ: هل تعرفني؟ هل سبق أن التقينا من قبل؟

همس بصوت شجي: نعم. لقد رأيتك بعين خيالي، أقصد بقلبي الذي لا يكذب أبداً. إنَّ صورتك الرائعة لا تفارق عيني، أشعر بالشوق إليك، إنني أسعد إنسان في العالم، يكفيني أنك تسمعيني، إنني أشكر شركة المحمول التي جعلتني أستمع إلىٰ أرق وأجمل صوت سمعته أذناي.

يا لهـٰذا الصوت الساحر! إنَّها تشعر أن قلبها يرفرف بين ضلوعها، يكاد يقفز من الفرح والسعادة.

قالت له: يبدو أنَّك أستاذ في الحب والغرام، ومؤكد أنني لست أول من يستمع إلىٰ هـٰذه الكلمات الناعمة.

قال لها: أُقسم لك، أن قلبي يرتجف حين يعانق نغمات صوتك، يا عزيزتي، الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وروحي وروحك في عشق وهيام منذ أمد بعيد.

أحست أنها تسير فوق السحاب، وضعت الهاتف بجوارها وهي تتنهد، وراحت تحلم وابتسامة ناعمة ترتسم علىٰ وجهها المضيء.

* * *

وتمضي الأيام، ليبعث إليها الحبيب بباقة من الورود اليانعة علىٰ صفحة الهاتف، أو يرسل بشفتين مكتنزتين علىٰ استعداد لتلقي القبلات.

وابتدأت رسائله الملتهبة عبر الهاتف، والتي لم تكن تقل روعة عن صوته الساحر، وكانت ترد عليه بكلمات طازجة، تشبه النسيم، وصور ترمز للحب والجمال.

كانت تتمنىٰ رؤيته، وحين ضرب لها موعداً في كازينو علىٰ النيل، خرجت إليه في أبهىٰ زينة.

والتقيا..

وراحت تتأمَّله، لم يكن وسيماً؛ لكنه كان رائعاً. أحست أنه أجمل من رأته من الرجال، برغم عيناه الضيقتان، وأنفه الكبير المدبب، وشعره الخفيف الأكرت، وجبهته الضيقة البارزة، ولونه الأسمر.

كانت تنظر إليه وتتأمَّل صوته وابتسامة صافية ترتسم على وجهها الوضيء.

كان يرتدي بنطال جينز، وقميص في لون الشجر.

همس في صوت مشروح: (أحبك).

ابتسمت في وداعة، وقد أحست أنها تعرفه منذ زمن بعيد. قاما، احتضنت كفها الطرية الباردة كفه، فشعرت بالدفء يسري في عروقها، راحا يسيران بجوار النهر وينظران إلى المراكب البعيدة، وطيور السماء.

وتعددت اللقاءات..

أقنعها بالزواج على أن تنتظر قليلاً حتى يفرغ من بعض المهام.

قال لها بصراحة: أنا إنسان بسيط، أكافح من أجل رعاية أسرة.

ابتسمت وقد أحسَّت في نفسها أنه إنسان يستحق كل تقدير واحترام. لقد كبر في نظرها أكثر.

في إحدى المرات قال لها: بصراحة شديدة وأمانة، أريد أن أحدثك في أمر هام جدّا وضروري، ذلك أننا تعودنا على الصدق والصراحة، إنني متزوج، نعم متزوج وعندي طفل صغير.

أصابتها الدهشة، وفغرت فاها لا تدري ماذا تقول!

أقسم لها أنه لا يحب زوجته، وأنه دائماً في صراع معها، يود الخلاص منها، فهي امرأة مستبدة تبحث عن المشاكل، وهو على استعداد لأنْ يطلقها الآن، إذا وافقت هي على الزواج منه.

لم تستطع النطق، قالت بصوت مضطرب بعيد، كأنَّما خرج من أغوار سحيقة:

أنا! لا أعرف ماذا أقول لك، لقد فاجأتني.

قال لها وهو يحتضن أصابعها ويبتسم: قولي إنَّنا لا يمكن أن نفترق، مهما كانت الظروف، أنا لا أستطيع الحياة بدونك، أموت!

مالت رأسها، وقالت في صوت متهدج: دعني أفكر، أعطني فرصة.

ولم يعطها فرصة، فقد كان دائم الاتصال بها، نغماته المميزة كانت تطاردها كل لحظة، رسائل، وكلمات تذيب الصخر.

* * *

بعد أيام، التقيا، وتعددت اللقاءات بعد ذلك، حتى لم تعد تستطيع الابتعاد عنه.

قال لها: أنا في حاجة إلى مبلغ من المال لأدفعه لزوجتي لكي أستطيع طلاقها، فهي لها في ذمتي متعة سنة ومؤخر صداق كبير، وهي امرأة شرسة، ربما أدخل السجن لو أنَّني لم أدفع لها هذا المبلغ.

فتحت حقيبتها، أخرجت مبلغاً من المال، وقالت: هذا ما أملكه الآن، وسوف أتدبر بقية المبلغ، سأحاول.

لا أعرف كيف أشكرك، هذه ديون طبعاً يا حبيبتي، سأقوم بسدادها لك بمجرد أن تتحسن الظروف.

بعد أيام قال لها مبتسماً: طلقتها، صرت حراً طليقاً، لم يعد في سمائي غيرك، يا أرق وأجمل إنسان.

واحتضنته بعينيها الواسعتين، وهمست بحماس: أحبك.

وتشابكت أصابعهما وراحا ينطلقان وسط الحقول والأشجار وضحكاتهما

كانت تسبح في الفضاء الواسع كطفلين.

قالت: الآن لم يعد أمامك أي اعتذار، عليك أن تتقدم إذن لطلب يدي.

وضع يديه على كتفيها، وراح يتأمَّل عينيها اللامعتين قائلاً: لا تزال هناك بعض الأمور لا بد أن ننتهي منها أولاً.

تقصد ماذا؟

في الحقيقة، لا أخفي عليك سراً، فإنَّ زوجتي، أقصد التي كانت زوجتي، رفعت ضدي قضية تبديد عفش الزوجية، رغم أنها أخذت كل شيء، حتى الأشياء الثمينة التي اشتريتها بعد الزواج، والتي لم تكن مسجلة في قائمة المفروشات، استولت عليها دون علمي وتتهمني بتبديدها. انظري أي زوجة كانت.

ماذا ستفعل يا حبيبي؟

لم يكن أمامي سوى أحد المحامين، سيتولى مهام القضية، وهو يطلب مني مبلغاً كبيراً، ويقول: إنَّ القضية - إن شاء الله - منتهية، لكنني لم أستطع أن أعطيه أي نقود، وهو لن يتحرك إلَّا إذا أخذ جزء من الأتعاب.

وبتلقائية، مدَّت يدها داخل حقيبتها وأمسكت ببضع ورقات من فئة المائة جنيه، وقدمتها إليه قائلةً: ولا يهمك يا حبيبي، لا تحمل أي هم، أنا والنقود وكل ما أملك ملك يديك.

ومرَّت الأيام، وفي لحظة ما مباغتة، رأته كان يتأبَّط ذراعها وأمامهما طفلة صغيرة لها ذيل حصان تقبض على عروس ملونة، بينما شقيقها الأسمر الذي يبدو في نحو السادسة، كان يرتدي ملابس شرطي، وفي يده بندقية آلية.

نظرت إليهم بتعمق، وهزَّت رأسها، ثم عادت إلى البيت.

في المساء، وفي نفس التوقيت المعتاد، كانت نغماته المميزة تصدر من خلال الهاتف. نظرت إلى الشاشة المضيئة وجسدها يهتز وينتفض. أغلقت المحمول، لكن

نغماته كانت لا تزال تتردد في رأسها، فارتمت على السرير ووضعت الوسادة فوق رأسها، وغرقت في بكاء متواصل، بينما المحمول عاد أكثر إلحاحاً وهو يهتف باسمها عبر نغماته الخاصة المميزة.

* * *

ابنة رجل مهم

ابنة رجل مهم

لم يكن يعنيها أبداً تلك الهمسات الخافتة، حين تهبط من سيارتها الفارهة، والتي تشبه - إلىٰ حد كبير - لون الفستان الذي ترتديه، والحقيبة الأنيقة التي تتساقط خلف ظهرها، ولون (الروج) الذي يعانق شفتيها الممتلئتين، وهي رغم جمالها الأخَّاذ، ودرجة أنوثتها الساخنة إلىٰ درجة الاشتعال؛ إلا أنها كانت مغلفة بإطار من الحدة والقسوة، كاللبؤة الشرسة التي لم يكن أحد يستطيع الاقتراب منها، تهبط من سيارتها ونظارتها تتساقط من أعلىٰ لتنزل علىٰ هٰؤلاء الأقزام الذين ينتشرون في أروقة الجامعة.

عملاقان لهما عضلات من حديد، رأسيهما حليقة، ناصعة، وأعينهما حادة غير مستقرة، تثير الخوف والفزع في أعتىٰ القلوب. بإشارة من يديها يفتكان بالشخص الذي تراوده نفسه أن يعترض طريقها، ولو بمجرد ابتسامة. أليست ابنة المسئول الكبير، والذي يخشاه الجميع.

يقول البعض: إنَّها ابنة وزير الداخلية، وآخرون يقولون: لا، إنَّها ابنة رئيس الوزراء. لكنهم جميعاً أجمعوا علىٰ أنَّها ابنة شخصية مرموقة في المجتمع، له سطوته، برغم الشبهات التي تحوم من حوله.

هي الفتاة الوحيدة التي تدخل الجامعة في أي وقت تشاء، وأثناء إلقاء المحاضرة، لا يستطيع الأساتذة أن يعترض علىٰ تأخيرها، أو حتىٰ ينظر نحوها، وهي تمسك بكوب العصير الطازج، ترتشفه. وكثيراً ما كانت تخرج علبة السجائر الذهبية وتلتقط سيجارة ملونة، لها رائحة النعناع وتضعها بين شفتيها ليقوم أحد العملاقين بإشعالها لها.

لم تكن تعنيها تلك الهمسات الخافتة، ولا تلك النظرات المتلصصة، تحاول

الاقتراب منها .

حدث أن اقترب منها أحد الزملاء، كان مبهوراً بجمالها، وقد نصحه زملاؤه بالابتعاد عن طريقها . فهي ليست كبنات حواء، إنَّها منطقة ملغومة، تتصدرها لافتة (خطـر.. الموت)!! بجانبها عملاقان مدججان بالمسدسات، وجوههما قدت من الصخر، لا يعرف قلبيهما الرحمة .

لكنه لم يعبأ بنصائح الأصدقاء، كان كالفراشة التي تنساق نحو النار .

قال لهم : لقد استولت هـٰذه البنت على قلبي، وعليها أن تعيده إليَّ مرة أخرىٰ . فهو قلبي على أية حال، ولا أستطيع أن أعيش بدونه .

ضحك الزملاء، وقالوا : أيها الفارس الْهُمَام، لقد جعلتك تنطق شعراً، وعما قليل سنصلِّي عليك صلاة الْجِنَازَة!

ليكن، فقط كلمة واحدة، تخرج من بين شفتيها لتعانق مسامع قلبي .

لكن المسكين لم يكن قد وصل إليها، فقد حملاه الأسدان وراحا يتقاذفانه بين أقدامهما كالكرة . وكان مصيره قسم الطوارئ بمستشفى الجامعة، وقضية (أمن دولة) تنتظره على باب العنبر .

ولما حاول أحد الأساتذة الفضلاء، أن يعترض على دخولها السكشن بعده، حيث كان مشهوراً بالتزامه وشدَّة تمسّكه بنظام المحاضرات، فضلاً عن كونه معروفاً في الأوساط الثقافية وله كتب ومؤلفات كثيرة تم ترجمتها .

قال لها في عتاب رقيق : غير مسموح لأحد أن يدخل المحاضرة بعدي، أرجو يا آنسة أن تلتزمي بقواعد النظام . ثم استأنف محاضرته .

لكنه لم يأت المحاضرة التالية، ولا التي بعدها، ولا يعرف أحد حتى الآن أين هو!!

* * *

كان رئيس الجامعة يدعوها إلىٰ مكتبه ويعمل علىٰ إرضائها بكلماته الرقيقة، وابتسامته العذبة. يسألها بإلحاح إذا كان هناك أحد يضايقها أو حتىٰ تشعر نحوه بعدم رضا، وسيقوم هو بعمل اللازم بطريقته الخاصة، مهما كان حجم هـٰذا الشخص، طالباً كان أو أستاذاً، المهم أن يرضي سعادة الباشا والدها.

ولما قامت أسرة المستقبل » وهي إحدىٰ الجماعات الطلابية النشطة والتي تهتم بالصحافة، ولهم مجلة يستعرضون من خلالها الأحداث الجارية داخل الجامعة وخارجها. تعرَّضُوا بالتلميح نحو هـٰذه الشخصية صاحبة النفوذ، والتي تستطيع بإشارة من إصبعها الصغير أن تفصل من تشاء أو تنقل من تشاء.

لم يكن أحد في حاجة لأن يسأل (من هي؟)، فالجميع يعرفونها حق المعرفة. لكن المجلة مُزِّقَت، وتم اعتقال الطلبة المحررين.

شعورٌ بالسَّخَط، كان ينتاب معظم الطلاب. لكن أحداً لم يستطع أن يتصدَّىٰ لها. حتىٰ كان ذلك اليوم.

* * *

كان يوماً مشهوداً حقّاً، حين اصطدمت سيارتها العملاقة بمؤخرة سيارة (ميكروباص) ونزلت من سيارتها وهي تسب وتشتم ذلك السائق الأعمىٰ الذي هو حيوان حقير. ثم صفعته علىٰ وجهه. وبالطبع نزل الأسدان يزأران، وأمسكا بالسائق المسكين وراحا يكيلان له اللكمات الموجعة حتىٰ اختفت معالم وجهه، ثم سقط في بركة من الدماء.

كان المشهد علىٰ مرأىٰ ومسمع من طلبة الجامعة، فانبرىٰ أحد الطلاب وقال بصوت غاضب: كفاكم ظلماً أيها المتوحشون.

وكأن كلماته تلك كانت هي المفتاح السحري الذي فتح البوابات علىٰ مصراعيها لجميع الطلاب بالجامعة، كان كيوم الحشر. حشود هائلة من الطلاب انشقت عن

الأرض، وهبطوا من السماء. التفوا حول السيارة الفارهة وقاموا جميعاً بحملها، وفي ثوان معدودة كانت السيارة قد انقلبت على وجهها، وعجلاتها تنظر إلى السماء، فكانت أشبه بحشرة عملاقة من حشرات ما قبل التاريخ، ثم أشعلوا فيها النيران.

وراحوا جميعاً يهدرون بأصوات غاضبة، ينددون بالظلم، بالاستبداد، بالأسعار المشتعلة، بالفساد. وكانت مظاهرة، جَابَت شوارع القاهرة.

* * *

سرّ غشاء البكارة

سرّ غشاء البكارة

في تلك اللحظة، أحست أن الأرض تميد تحت قدميها، وأنَّ ثمة قطعة من اللهب ابتلعتها داخل جوفها، فراحت تحرق كل جزء داخل أحشائها.

وضعت يديها على أذنيها، تحاول أن تكتم هـٰذا الصوت الهادر، الذي يحاول اختراق عقلها، ويكاد يصيبها بلوثة.

صوت يتردد صداه بقوَّة، رغماً عنها، لعله كابوس من تلك الأحلام التي تجثم على عقلها الباطن أثناء النوم، سوف تتحرر من بوتقته الآن.

تنظر حولها، أشباح هائمة في الفضاء تشير نحوها وتضحك، إنَّه ليس حلم كما تتوهَّم، بل هو عين الحقيقة، وأي حقيقة؟!

كيف تواجه أمها المسكينة، أباها الحنون، صاحب الوظيفة المرموقة والاسم المعروف، فهو كثيرما يظهر في وسائل الإعلام باعتباره صاحب فكر متحضرٍّ، وآراء أكثر تحرراً، فهو أحد الذين يطالبون بمزيد من الحرية للمرأة، حتى نلحق بركب التقدم والرقيّ.

كان ذلك في مطلع شبابه، عندما ألَّف الكثير من الكتب يناشد فيها المجتمع بالاعتماد على العقل، واعتباره الأداة الأولى والوحيدة لتحقيق الطموح القومي، وهو من أكثر الذين أثاروا جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية، وقامت معارك طاحنة بينه وبين رجال الدِّين، اتهمه البعض بالزندقة والمروق من الإسلام، لإنكاره السُّنَّة المطهَّرة بحجة أنها تحتوي على الكثير من الأحاديث الموضوعة، والباطلة غير المستساغة عقلياً، ومحاولة تفسيره لآيات من القرآن الكريم وفق هواه.

بيد أنَّ المسئولين بوسائل الإعلام اعتبروه مفكراً مستنيراً، صاحب قاعدة فقهية جديدة. فكانوا يدفعون به إلى أصحاب العمائم من رجال الأزهر ليدخل معهم في

معارك شرسة، يظهر فيها انتصاره عليهم بصوته الضخم، وألفاظه المنمَّقة، والتي يختارها بعناية شديدة مع استخدامه للمصطلحات الفلسفية والألفاظ الأعجمية.

كان من أكثر الذين يطالبون بالحرية والتحرّر، وخاصة فيما يتعلَّق بالفتاة والفتىٰ، فهو يرىٰ أن البنت والولد لا بد أن يتعارفا قبل الزواج، ولو وصل بهما الأمر لممارسة الفعل، حتىٰ يتسنَّىٰ لهما الحكم علىٰ تلك العلاقة، وهل يستمرون أم يتجه كل طرف إلىٰ طريق آخر، يبحث فيه عن علاقة أخرىٰ. ريثما يصل الفرد إلىٰ حالة من الإشباع والرضىٰ، فإنَّ نسبة كبيرة من حالات الطلاق التي تحدث تكون: إمَّا بسب عدم الإشباع، أو بسبب عدم الرضىٰ، فضلاً عن النار التي تحت الرماد، وهي تلك الصراعات المحتدمة داخل البيوت والمشاكل المتفاقمة، والتي تأخذ أسباباً أخرىٰ ظاهرية، وإن كان السبب الحقيقي غير معلن رغم تجسيده أمامهم كواقع؛ نظراً لظروف اجتماعية قديمة، وقيم بالية لا بد أن نتخلص منها!

* * *

وتمر السنون، ليعود صاحبنا من بلاد الغرب، وقد رُزِقَ بثلاث بنات.

يعود برؤية أخرىٰ غير التي بدأ بها، فقد رأىٰ الانحلال بعيني رأسه، وحالات الشذوذ يتم فعلها علىٰ رصيف الشارع علىٰ مسمع ومرأىٰ من الجميع، والكلّ يبارك ذلك ويطالب بالمزيد!!

لقد تحرَّك داخله إحساس دفين أن هذه الحركة الصاخبة - رغم أضوائها الساطعة - هي أشبه بصواريخ السيرك والكرنفالات الضخمة، تنطلق في السماء لتشيع في الفضاء جواً من البهجة والمرح، ثم تختفي في التو.

أغلق علىٰ بناته جميع الأبواب، لكنه لم يستطع أن يمنع عنهن حركة الحياة الدائبة المستمرة؛ والتي أصبحن جزءاً من حركتها.

تعجبت زوجته علىٰ أسلوبه في ممارسة السلطة، والتي تصطدم مع مبادئه وأفكاره، وآرائه التي اشتهر بها قديماً.

قال لها: بصراحة كنتُ شاباً أرعن، مبهوراً بنور الغرب والذي اتضح أنه نار موقدة تحرق كل القيم والصفات النبيلة التي عشنا عليها، إنَّهم يتحرَّكُون كجثث الثلج، ليس ثمة دفء، الهدف واضح؛ هو الحصول على أكبر قدر من الثورة والحرية.

الحرية بوجهها القبيح!

هم في طريقهم إلى زوال، كالصحوة التي تسبق انفلات الروح، فما من حضارة وصلت إلى ما وصلوا إليه، إلَّا وكانت بداية النهاية.

لقد صرت ـ يا زوجتي العزيزة ـ أباً لثلاث فتيات جميلات. هن قلبي، وعيني، وعقلي. لا أستطيع أن أقدمهم قرباناً لهذه الآلة الطاحنة التي تسمَّى الحرية، وما هي بحريَّة، إنَّما هو التخلف بعينه والرجوع بنا إلى عصور الانحطاط والبهائمية. لنعد إلى بلادنا، ويكفي ما حققناه على مدار السنوات الماضية.

* * *

وعادوا.

لتدخل هي ـ الابنة الصغرى ـ إحدى المدارس الخاصة بالتعليم الثانوي.

لقد اطمأن والدهنَّ تماماً عليهن. ترك لهن الحبل على الغارب، بعد أن قدم لهن مجموعة من النصائح والوصايا الجاهزة، هو من أعماقه كان مطمئناً، فالواقع مهما يكن ـ هنا ـ يختلف ألبتة مع مجتمع الانفلات. هنا كل شيء هادئ ودافئ. الشمس بوجهها المتلألأ تبتسم في وداعة وهي ترسل على هؤلاء الطيبين ملايين الأذرع الذهبية الدافئة.

الأصالة، الجدعنة، المروءة، الشهامة. هي صفات لا يزال لها بقية في قاموس الناس، رغم المشاكل المتوحشة.

الدين هنا يتدفق في أوصالهم، يدفعهم للصبر والرضا.

لكن هناك ـ في مجتمعنا ـ من يطالب بالحرية على غرار ما يحدث في الغرب. إنَّهم تلاميذه الذين تأسَّسُوا على مبادئه وتشربوا أفكاره الحرَّة من كتبه، وأحاديثه، ومقالاته.. و....

وظهر مرة أخرى، ليخفف من وطأة كلامهم، ويرد على افتراءاتهم. إنَّه وجه آخر غير الذي ذهب به. نعم، لقد عاد إلى ينبوع الدين الصافي، نهل منه على مهل، وبتمعن. درس السيرة العطرة لسيد الخلق محمد ﷺ. استعرض تاريخ الصحابة والتابعين، اطمأن أن الأحاديث النبوية هي أصل السُّنة، وأنها علم له أصول قيد الله له رجالاً صالحين عملوا على حفظه وتنقيته من التهم والشوائب، أفنوا أعمارهم في البحث والتحقيق، حتى اطمأنت الأمة على دينها.

شَعَرَ كم كان جاهلاً، مغروراً!

أراد أن يكفِّر عن ماضيه، فراح يكتب من جديد، كتابات أخرى بخلاف ما كتب من قبل. فقامت الدنيا ولم تقعد، وشن أشباه المثقفين عليه هجوماً ضارياً، لكنه لم يتوان، واستمر في طريقه لا يلتفت إلى الوراء.

فجأة اصطدم بشيء لم يعمل له حساب.

* * *

حين علم بما حدث لابنته، كاد يسقط على الأرض من هول ما سمع، لم تحتمله قدماه، فقعد على أقرب مقعد وراح ينظر إلى لا شيء، ودموع متحجرة تطل من عينيه، كان ثمة إحساس عميق يقول: إنَّه السبب فيما جرى لابنته، إنَّها النتيجة المحتومة لآرائه السابقة، والتي أثمرت. وكانت الثمرة؛ بذرة تتحرك في أحشاء الصغيرة.

يا للهول... لقد كان هو أحد من تلظَّى بنارها، تلك الآراء المتحررة، والسخيفة، والنظريات المهترئة.

ها هي ابنته التي هرب بها من جهنم الغرب، تأتي إلىٰ هنا لتقع فيما خشىٰ عليها منه هناك. أي كارثة حطت علىٰ رأسه؟! أي مصيبة أصابت قلبه؟!

من؟

مَنْ يا بنيتي صاحب هـٰذه البذرة؟

بكت. وضعت يديها علىٰ رأسها، لم تنطق.

لا بد أن نعرف مَنْ هو هـٰذا المجرم الآثم؛ حتىٰ نستطيع مواجهته؟

قالت من بين دموعها الغزيرة: لا أعرف كيف حدث هـٰذا. صدِّقوني، ليس لي أي علاقة بأي شاب، أكاد أجن.

* * *

استدعىٰ الأب أحد الأطباء؛ ليقوم بالكشف عليها والتأكد أكثر.

وكانت المفاجأة الكبرىٰ، أنها لا تزال بكراً، غشاء البكارة لم يمس، لكنها حامل!!

كيف يا دكتور؟

هي الوحيدة التي تستطيع أن تجيبكم عن هـٰذا السؤال.

وأجابت: وانكشف المستور. وكانت أكبر لطمة وجهت إليهم جميعاً: «الحمل كان نتيجة علاقة جنسية شاذة (سحاق) حدثت بينها وبين إحدىٰ الصديقات، وهي امرأة ساقطة تعمل مترجمة بإحدىٰ الإذاعات الأجنبية»!!

* * *

الدخول في الممنوع

الدخول في الممنوع

إحساس بغيض بدأ ينتابها، يعتصر قلبها من الداخل، تبحث عن مخرج، يتولَّد لديها إصرار على الخروج من هٰذا المنزلق الآثم.

هي لم تكن أبداً راضية عن هٰذا المسلك، لكنها لا تعرف كيف يكون الخلاص، لعلها مريضة، مؤكد أنَّها كذلك، وإلَّا ما الذي دفع بها إلى تلك المناطق القذرة. هي البنت النظيفة، المهذبة، والتي يشهد لها الجميع بحُسْن السير والسلوك!

لكنها كانت تموت من داخلها، تشعر أنَّ ثمة يداً فولاذية تدفع بها إلى هٰذا المنزلق الآسن، تحاول التملص منها، لكنها تفشل. إنَّه سرّها الدفين، اللعين، والذي تحمله معها أينما ذهبت. جعلها تنظر إلى الجميع نظرات أخرى، تنزع عنهم أرديتهم وتكشف المستور ليتم الفعل بعين خيالها.

صارت تنظر إلى الآخرين بعيون زائغة، متعطشة لممارسة الفعل المحرّم، هي التي دفعت بنفسها إلى هٰذه المنطقة الملغومة.

في البداية، كانت لعبة، مجرد نوع من التسلية وفقدان الوقت، لم تكن تظن أنَّها ستصبح أسيرة اللعبة، تحوَّلت إلى حالة من الإدمان، لم تعد تستطيع الانفكاك، تلعن نفسها، وهٰؤلاء الذين يتحرَّكُون أمامها، وهم في حالة انتشاء، تلعن التكنولوجيا، الآلات الحديثة، لكنها تحدق، تتمعن، تنصهر مع المشاهد الساخنة، تصير جزءاً من هٰذا العالم.

* * *

البداية: كانت حلم بريء بامتلاك جهاز، ثم ازداد بعد تحوّله إلى واقع، بوصلة كسرت سقفه ونقلته إلى السماوات المفتوحة، ليصير موصولاً بملايين الأجهزة في العالم، إنَّه التجسيد الحقيقي لقرية العالم.

قالت لهم: يا لهـٰذه الشبكة الخطيرة، أستطيع من خلالها أن أتعرف على كل شيء، وأصير مبرمجة بكمية من المعارف الحديثة التي تدفع بي إلى مقدمة الصفوف، والحصول على تقدير ممتاز يساعدني في اجتياز تلك السياج الشائكة الشاهقة، والتي تحيط بمجتمعنا البائس.

قالت لهم: بهـٰذه الشبكة الهائلة، سوف أصبح إنسانة فائقة القدرة، تمتاز بالعبقرية والذكاء.

وأخذت تصريحاً بالدخول، ودخلت.

كان في أعماق أعماقها هاجس أنَّ هناك مناطق حذرة ربما تقع فيها. حاولت أن تخفي هـٰذا الهاجس عن نفسها، وأن تتعامل مع الشبكة العنكبوتية بحذر واحتراس. لكنها كانت تراه، ذلك الشيطان الماجن، كان يطل برأسه الماكرة ليضحك وهو يشير نحو تلك المناطق الممنوعة.

قالت لنفسها: ما المانع؟ محاولة استكشاف ريثما نتعرف على هـٰذا العالم الغامض. ودخلت لتسقط في بحاره العميقة شديدة الظلمة، رغم ألوانه البرَّاقة التي تطفو على سطحه. تخرج من أعماقه السحيقة ملايين الأذرع لتجذب إليه هـٰذا الواقف على ضفافه.

انتابتها رعشة غريبة، وانتفض كيانها بطريقة لم تعهدها من قبل. قامت بسرعة، نظرت خارج الحجرة. تأكَّدت أنهم جميعاً يغطون في سُبَاتٍ عميق.

أغلقت الباب وراحت بسرعة تغوص داخل تلك البحار المظلمة. رفعت حاجبيها دهشة، حبست أنفاسها، تنتقل من هنا إلى هناك، تتصاعد الدماء حارة، سريعة إلى وجهها ليتحول لونه الناصع إلى صفحة بلون الدم.

أغلقت الجهاز، وراحت تلتقط أنفاسها، تستعيذ بالله من هـٰذا الشيطان الماكر. جلست على حافة السرير، تحاول أن تلم مشاعرها الثائرة. ثمة قوة غير مرئية تدفعها

نحو الجهاز، تستأنف رحلتها من جديد. إنَّها تزداد عطشاً، لم ترتو بالقدر الكافي. رجال ونساء من شتىٰ الأقطار، جمالهم صارخ، يفوق العقل! أثمة جمال بهٰذه الروعة؟!

صور مضيئة تتحرك، تحمل أجساداً تتداخل، آهات موجعة تصيبها بخدر لذيذ، يتبلبل العشب. يداهمها إحساس ما، إنَّها لصة مجرمة، قامت مرة أخرىٰ وجسدها كله ينتفض، تسمعت أنفاس النائمين، والهواء الذي يعربد بالخارج، والقطط التي تتطاحن فوق الأسطح القريبة، وموتور الثلاجة الذي يتأوَّه كل حين.

عادت مرة أخرىٰ في الصباح، كانت تسترجع جميع الصور والمشاهد التي تم اختزانها. تجلس في الفصل، تنظر إلىٰ زميلاتها. تشعر أنها أقلهن جميعاً، ثمة صوت يهدر بداخلها أنها فتاة سيئة، غير صالحة، لا تستحق أن تنال هٰذا الاحترام من المحيطين بها. هم لا يعرفون حقيقتها، فهي رأت بعين خيالها، بداخلها حيوان ثائر يتمنَّىٰ ويشتهي.

انزوت، لم تجد أدنىٰ رغبة في حديثهن المعتاد. أين الشرائط الدينية التي كانت تسمعها، الكتب، حديثها عن الفضيلة والقيم الكريمة. لا يحق لها أن تنادي بالالتزام بين زميلاتها، فقد غزاها الشيطان. سكن قلبها، صار يؤجج مشاعرها، يحركها بخيوطه الساحرة، يدفع بها إلىٰ مهاوي الظلام، ورؤية ما لا يجوز لها أن تراه.

تذكرت كلماتها في الحفل السنوي، والتي نالت عليها تصفيقاً متواصلاً من جميع الحضور. كانت في حالة من الانفعال، حين تحدَّثت عن هٰذه الحرب الضروس والتي بدأت منذ عهد النبي ﷺ، ولا تزال قائمة ومستمرة، ولن تهدأ.

إنَّهم يحاربوننا بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، يطوعون كل السُّبُل لخدمة أغراضهم الدنيئة. وهدفهم الأول: شباب الأمة.

أثقلتها الهموم، واختلطت الرُّؤَىٰ، وصارت تسير منكسة الرأس باكية.

كانت تبكي من داخلها، تقع بين عالمين، كل منهما يجذبها بقوَّة، عالم بغيض، له وجوه كالحة مضببة، وإن كانت ترتدي أقنعة من الْحُسْن والجمال. إنَّه الحسن الممجوج، والجمال الملطخ بالرذيلة والعار والأمراض الفتَّاكة. عالمٌ قذر يجذبها بفتنته وسطوته، بألوانه الصارخة، البرَّاقة، يستحوذ على مناطق النشوة والشهوة، فتشتهي الممنوع، وتكاد تسقط في أتون الرغبة.

وعالم آخر، مضيء، مصقول، تبدو الشمس في سمائه الصافية تبتسم في وداعة. عالم رائع يفترش بالورود والرياحين، تنتقل بين حناياه في سعادة ومرح. بل هي عوالم متنوعة كالحدائق الغناء.. على أعتابها مدارس وجامعات بها كل صنوف العلم والمعرفة، تنساب بداخلها جداول المياه العذبة، وتغرد فوق أشجارها الأطيار.

كان عليها أن تحدد أي عالم تختار.

* * *

قررت - بعد أن نزعت عن قلبها كل الشوائب والأدران - أن تتطهر، دخلت في الصلاة، راحت تتوجه إلى الله بقلب باكٍ، تتضرع إليه - سبحانه - أن يعينها على نفسها، وأن يحفظها من شياطين الإنس والجن.

بكت، وبكت كما لم تبك من قبل.

وحين أتمت صلاتها، شعرت أن هالة من النور تتسلل إلى كل ذرة في كيانها، ثم تتدفق بحنان ورحمة إلى قلبها. شعرت بالراحة والسكينة والإيمان.

وفي لحظة ما فاصلة، قررت أن تقوم بعمل برامج تقضي على تلك المناطق النجسة! وقد نجحت بالفعل في عمل دروع واقية وأسلحة حيَّة من الفيروسات، جعلتها تتسلل إلى بعض هذه المواقع الإباحية وتصيبها في مقتل.

* * *

شارة الخطر

شارة الخطر

لم يكن قد تم تشكيلها بعد بالقدر الكافي، بيد أن هناك ذئاباً تشتهي مثل هـٰذا اللحم. منهم زوج الأم، والذي كان يتحين الفرص ليقوم بذبحها.

هي الصغيرة لم تكن تعرف ماذا يعني هـٰذا الفعل، كانت تستجيب له كنوع من المداعبة البريئة، فهو ـ علىٰ أية حال ـ زوج أمها، وهو في مقام والدها الذي تركها قطعة لحم وفَرَّ إلىٰ بلاد الله البعيدة، تاركاً حفنة من الأبناء، عاد بعدها محمولاً في تابوت.

لما أينعت، واستحالت طفولتها إلىٰ أنثىٰ ناضجة، كان زوج الأم قد سقط قتيلاً في إحدىٰ الليالي الباردة، وكان عائداً من طريق الزراعات بعد أن قام بالفعل الحرام في أحد البيوت المهترئة التي تطل علىٰ البحر، ترصدته بندقية غاضبة، لها رقبة طويلة.

* * *

لما سمعت من زميلاتها بالمدرسة عن شريط العفَّة، والذي يتم تمزيقه ـ حتماً ـ بفعل فاعل، هو الزوج الذي يختاره قلبها ليكون أول من يمارس الفعل الحلال. كان يحلو لهن ـ هن بنات القمر ـ أن يلتففن حول بعضهن، ليتحدثن عن تلك العلاقة الثنائية، وحالة التوحد التي تحدث بين الموجب والسالب، وكل منهن تدلي بدلوها، وتستعرض مهاراتها العلمية، والتي غالباً ما تكون مستوحاة من الخيال الجامح، أو المجلات والكتب ذات الأوجه الرديئة، أو تلك البرامج الفضائية المتهتكة، والتي تدعو للانفلات واختلاط الحابل بالنابل.

وفي بعض الأحيان، يحصلن علىٰ تلك المعلومات بواسطة فتاة لها تجاربها الخاصة في هـٰذا العالم المتكتم الغامض، حيث استطاعت أن تكسر كل الحواجز

وتكتشف بنفسها ما وراء الممنوع دون أن تأبه لكل الأعراف والقوانين.

* * *

أسرعت هي إلىٰ الكتب تستقي منها الحقائق العلمية. هي تعرف جيداً أن الكتب هي الكائنات الوحيدة علىٰ هٰذه الأرض التي تأتمر بأمرها وقتما تشاء، وهي التي تحتفظ لها بسرها فلا تبوح به لأحد. وحين تأمر بالصمت، تغلق ـ الكتب ـ فمها علىٰ الفور، فلا تنبث ببنت شفة.

ها هي تنكب علىٰ أحد الكتب، بين جدرانها الأربع، تغوص في الأعماق، تتكور بين السطور، تغرق في بحار الصفحات.

- **غشاء البكارة:**

«هو غشاء رقيق يصل ما بين الأعضاء التناسلية الخارجية للمرأة وبداية الأعضاء التناسلية (المهبل) وهو العضو الذي يتم من خلاله الاتصال الجنسي مع الزوج بعد القران.

وبالتالي، فهٰذا الغشاء هو الحارس علىٰ المهبل، وهو الدليل علىٰ عدم حدوث اتصال جنسي كامل قبل ليلة الزفاف، وبمعنىٰ آخر: هو الدليل الطبيعي علىٰ بكارة البنت وعذريتها، وتوجد في هٰذا الغشاء فتحة صغيرة، أو أكثر تسمح بمرور دم الحيض من أي فتاة بعد البلوغ، وتبعاً لشكل هٰذه الفتحة يسمَّىٰ الغشاء هلالياً، أو دائرياً، أو مشرشراً كالمصفاة أو ذا فتحتين. ويتمزَّق هٰذا الغشاء عند الاتصال الجنسي مسبباً نزول كمية من الدم»[١].

تتذكر زوج أمها، تشعر كأنَّ ثمة يد حديدية تقبض علىٰ قلبها وتعتصره، يتلون وجهها بلون الحزن، الخوف، الفزع.

---

(١) راجعي: كتاب (أنت والمتاعب التناسلية): نخبة كبيرة من الأساتذة المتخصصين. دار الهلال، سلسلة الكتاب الطبي.

إنها كتب علمية، ليست من ذلك النوع الرديء الذي يشبه نساء الحانات، والشوارع الخلفية ذات الألوان المطفئة أو المظلمة.

إنَّها تبحث عن صديقات صادقات، يحملن قدراً كبيراً من الأمانة، فوجدتهن بين دفات الكتب، كانت تريد أن تعرف، تتشوق للمعرفة أكثر وأكثر، وتتصفح:

«هل يمكن للفتاة أن تفحص غشاء بكارتها بنفسها؟

لا ننصح أي فتاة بأن تحاول فحص غشاء بكارتها بنفسها، سواء باستعمال الإصبع، أو باستعمال مرآة، ففي أغلب الأحوال لا يمكن رؤية هٰذا الغشاء الرقيق، مما يسبب زيادة قلق الفتاة، ولكن أفضل طريقة للاطمئنان علىٰ غشاء بكارتها إذا استدعىٰ الأمر هو التوجه دون خجل إلىٰ الطبيبة الأخصائية حتىٰ يزيل جميع المخاوف. كما لا ننصح الفتاة بمحاولة الاطمئنان علىٰ غشاء بكارتها عن طريق الاستعانة بإحدىٰ زميلاتها لفحصها، فهي طريقة لها عواقب وخيمة»[١].

* * *

لما تأكَّدت، بكت. لقد تذكرت طفولتها المهدرة، والتي تم وأدها علىٰ يد زوج أمها، ذلك الخائن، الجبان. ما مصيرها الآن؟ ماذا يمكن لها أن تفعل؟

إنَّ الشريط الذي ينم عن العفَّة غير موجود، مؤكد أنه غير موجود، هي تعلم ذلك جيداً. تلك هي الحقيقة، هل تعلنها؟ لمن؟ لأمها.. لا. يكفي ما هي فيه من آلام وأوجاع. هل تحكي لصديقتها؟ لا. أي صديقة تلك التي يمكن لها أن تأمنها علىٰ هٰذا السرّ الدَّامي. نعم، ليس أمامها إلا الطبيب، هو وحده الذي يستطيع أن يصلح ما فسد. لكن ذلك يعد تزويراً وتدليساً. وما ذنب ذلك القادم والذي تنتظره يأتي علىٰ حصانه الأبيض؟!

ليس أمامها إلا أن تعترف له بالخطيئة. إذا كان بالفعل يحبها، فسوف يغفر لها

---

(١) المصدر السابق.

أي خطيئة قد ارتكبتها، فما بالك بهذا الخطأ الذي لا ذنب لها فيه. ألم تكن طفلة وديعة، غرر بها ذلك القط العجوز، وسلبها أعز ما تملك؟!

ومرت الأيام، وجاء الطارق.

* * *

كان سعيداً، متورد الوجه، فقد فاز بزهرة الفؤاد، والتي كان يتمناها قلبه حين ذهابها إلى المدرسة.

قالت له: علينا أن نتفق على الصراحة، والصدق منذ البداية؛ لأنَّ ذلك سيكون شعارنا دائماً.

قال مبتسماً: نعم، مؤكد أن الصدق قيمة عظيمة.

وهنا غمغمت بكلمات تعني الغدر، الطفولة. وغلالة رقيقة ربما لا يجدها.

انكمشت الابتسامة على وجهه، ماتت. ثم تضرج الوجه بلون الدم. تلعثمت الكلمات على لسانه، ضاعت. بحث عنها، لم يجدها. هز رأسه واستأذنها، ثم ذهب ولم يعد.

* * *

كانت شديدة الاحتشام، وضيئة الوجه، تنتقي ألفاظها بعناية، تزنها بميزان الذهب. بثقافتها العريضة الواسعة، وسعة اطلاعها في شتى المجالات، فضلاً عن التزامها بأدب الإسلام، اكتسبت احترام الجميع بالشركة.

بيد أنهم في داخلهم يتعجبون؛ إذ كيف لمن تحمل كل هذه الصفات ألا تتزوج! وقد بلغت ما بلغت من العمر. لكن أحداً لم يجرؤ يوماً على اقتحام أسوارها الفولاذية العالية. ولم يعرف أحد لماذا هي عازفة عن فكرة الزواج برغم ما تقدم إليها من أطباء ومهندسين وأساتذة جامعة ورجال أعمال. تعود بذاكرتها للوراء، سنوات

وسنوات . . حين تقدم إليها شاب تخرج حديثاً، كان يرتسم على وجهه علامات الطفولة والوداعة، تعاهدا معاً على الصدق والصراحة. وفي لحظة ما، أعلنت له سرها القديم.

هزَّ رأسه، وقال لها: «ليس لك ذنب فيما حدث. أنت مجرد ضحية لظروف قاهرة. . و. . . . تكلَّم كلاماً كثيراً»، فشعرت نحوه براحة، وهمست لنفسها: «لقد آن للدنيا أن تبتسم».

لكن المسكينة صدقت حين وجدت هٰذا الإنسان الطيب الوديع، يتحول ـ في لحظة ما ـ إلىٰ ذئب، محاولاً استغلالها. لكنها أفهمته أنها ليست كما يظن، وأن الشرف هو تاج رأسها، ولا يمكن أن تفرط فيه بإرادتها.

ولما وجد طريقها موصداً في وجهه، عاد من حيث أتىٰ.

* * *

لم تفتح بابها لأحد من بعده، كانت الكتب هي العالم الذي تعشقه، ارتمت في أحضانه، بكل طاقاتها تنهل، حتىٰ صارت موسوعة علمية وثقافية تمشي علىٰ الأرض.

وها هي الآن تشارك في الكثير من الجمعيات الأهلية، محاولة التخفيف عن الكثيرات من أولئك الزهراوات اللاتي فقدن أعز ما يملكن، وتقديم المساعدة اللازمة لهن بقدر ما تستطيع. فضلاً عن برامج التوعية للأمهات والتي كانت تقوم بها من خلال وسائل الإعلام المختلفة.

* * *

تحولات الجسد

تحولات الجسد

حين تمت ولادته، سعد به والداه، قالا: ما أروع هٰذا الولد، لنسميه: خالداً.

وهٰكذا كبر الولد (خالد) بين شقيقاته الأربع، فكن جميعاً سعيدات به، يحملنه ويقمن برعايته.

وكان (خالداً) يجلس دائماً بين أخواته البنات، ينظر إليهن ويقوم بتقليدهن، فكن يضحكن من قلوبهن بشدة.

بيد أن الأب، وبرغم حبه الشديد لخالد، إلا أنه كان يرسم الغضب على وجهه قائلاً له بحدَّة: يا ولد يا خالد، أنت رجل، عليك أن تعرف ذلك جيداً.

وكانت الأم تحدق في وجهه قائلة: كن رجلاً، ثم تأمر شقيقاته الأربع أن يفسحن له الطريق حتىٰ يستطيع التعبير عن نفسه بشكل أفضل. كان الأب يحب بناته كثيراً، ويحب (خالداً) أيضاً.

يقول لهن: أنا أحبكن من قلبي؛ لأنكنَّ بناتي، وأحب (خالداً) أيضاً؛ لأنَّه الولد الوحيد بينكن. ثم يشتري لهن الدُّمَىٰ والعرائس الملونة، ويشتري لخالد فارساً متجهماً، ينظر إلى الأفق البعيد من فوق صهوة جواده الذي يتأهب للطيران نحو السماء.

وكان والده يحضر له صندوق المكعبات، والتي أثارت دهشتهم جميعاً لما وجدوا الأب يشكل منها بيوتاً عالية ذات أسقف مائلة، وأشجار خضراء، وحيوانات مرحة، وحراس يقفون في الطريق يشيرون للسيارات والناس.

سعد (خالد) بهٰذه الألعاب، غير أنَّه ما لبث أن عاد إلىٰ اللعب بالعروس الملونة مرة أخرىٰ، وترك الفارس المتجهم، والمكعبات.

كان الأب يمسك بيد ولده (خالد) حين كبر، ودخل المدرسة الابتدائية. قال له:

أريدك أن تتعلم جيداً، وتصبح مهندساً كبيراً.

قال (خالد) بتلقائية: لا، أريد أن أصبح طبيباً يا أبي.

ابتسم الأب، وربت على كتفي (خالد) وقال: ليكن ما تحب، الطبيب أيضاً مهنة جيدة.

* * *

وتمر السنوات، ليظهر نبوغ (خالد)، ويتفوق على جميع أقرانه بالمدرسة، مثله مثل شقيقاته البنات اللاتي كن يحصلن على شهادات جيدة جداً.

لقد كان (خالد) ولداً رائعاً، فهو ـ بجانب تفوقه ـ كان جميلاً إلى درجة مذهلة، له ملامح غاية في الاتساق، وعينان واسعتان لامعتان، وشعر فاحم وناعم يضرب شحمة أذنيه.

ولما انتقل (خالد) إلى المرحلة الإعدادية، كان يجلس في الفصل وفي داخله تشوق للنجاح والتفوق، لكنه كان انطوائياً بشكل ملحوظ، فلم يستطع أحد من الأولاد أن يقترب منه ويصاحبه، فهو لم يكن يملك القدرة على صياغة علاقة جيدة؛ إذ كثيراً ما كان يفضل الجلوس في مكان بعيد أثناء الفسحة.

وفي حصة التربية الرياضية، كان يعتذر بخجل عن عدم مشاركته الألعاب العنيفة، فهو بطبيعته يكره العنف، ويميل نحو النعومة والرِّقة.

وفي المرحلة الثانوية كان لا يزال يسير على نفس الوتيرة، فهو لم يحاول مرة أن يضع لفافة تبغ بين شفتيه المكتنزتين كما كان يفعل الكثير من الطلبة، وهو من أشد الطلبة وأكثرهم حرصاً على الالتزام بآداب الحصة، والاستماع بشغف إلى الشرح. أمَّا حقيبته، فكانت نموذج رائع للطالب المتفوق، والذي يمتلك حساً عالياً من الفن والجمال، بما كانت تحمل من كراسات نظيفة وأدوات.

لقد كانوا جميعاً يعجبون بخالد، وأشد ما كان يثير دهشتهم: هو أنه كان

حـريصـاً على مظهـره وهنـدامـه، وتـلك الرائحـة العطرة التي تفـوح من بين طيـات ملابسه، والتي اشتهر بها بين زملائه.

وهو، برغم نعومته الزائدة، وطراوة يديه، إلا أنَّ الطلبة كان يحلو لهم الالتفاف من حوله، والتحدث إليه في أمور كثيرة، وكـان البعض منـهم ينظر إليه بإعجاب قائلين له: أنت أجمل من فتاة حسناء.

وكان بعض الأشقياء يتحرشون به ينالون منه قبلة سريعة من خده الطازج، فكان يتضـرج وجـهه بلون الـدم، ولا يعـرف مـاذا يمكن لـه أن يفـعل. وكـان يحـلو لهم أن يتحدثون عن مغامراتهم العـاطفية عند مدارس البنات، ويقولون له: وأنت يا خالد، أليست لـك فتاة تحبهـا وتتقابل معهـا في شارع الغرام؟ فكان يضع يده على فمـه كاتماً ضحكة خجلى تحاول أن تظهر.

ولما انتقل (خالد) إلى المرحلة الجامعية، رأى عالـم يموج بـالحركة، خليط ما بين الطلبة والطالبـات، وكان هو يقتـرب من البنات أكثر، يتودد إليهن، ويتحـدث إليهن بعفوية وتلقائية، حديثاً يخرج منه عفو الخاطر، فكن يستمعن إليه وهن سعيدات به، مـجنونـات بحسنه البـاهر. حتى إنَّ الكثيـر من الطـلبة كـانوا يظنون به الظن السيئ، يقولون: إنَّه ولد شاذ، متخنث. وكانت تصل أحياناً كثيرة إلى مسامعه، فكان يشعر بشيء من الضيق، أو الغضب، ثم لا يلبث أن يهدأ ويركن إلى الجانب الآخر.

* * *

في البـيت، كان يغلق باب غرفته بالمفتاح، ثم يخلع عنه ملابسـه كاملة، يتـأمَّل جسـده الملفوف الناصع، الذي تسري في أنحـائه طراوة وأنوثة، يتحسس التضاريس في أنحاء جسده، والذي يعمل دائماً على إخـفائها بتكتم. يفتح باب الخزانة، يخرج قمصان النوم، وعلب الماكياج. يشعر بالحزن يعتصر قلبه.

لم يعـد يستطيع التقـوقع أكثر من ذلك. لقـد حـاول أن يظهر بطبيـعتـه الخاصـة، لكنه لم يستطع، مـا زال الجميع ينظرون إليـه باعتبـاره رجل البيت، الذي ينوب عن

الأب، أليس الولد الوحيد، والكل يعامله باعتباره ولياً للعهد.

لكن نار الأنثىٰ تكاد تحرقه، تلفح وجهه. لم يكن أمامه إلا الذهاب إليه، ذلك الطبيب النفسي، الذي شرح له حالته، إحساسه تجاه نفسه، وتجاه الآخرين. ميوله التي تترع إلىٰ اتجاه مضاد رغم أنفه. إنه سجن الجسد، والذي آن له أن يخرج عن صمته.

جلسات وجلسات. كان مصراً، ولم يكن أمام الطبيب إلا أن يقوم بعرضه علىٰ فريق من الأطباء في إحدىٰ المستشفيات ليقرروا، لقد كان في حاجة إلىٰ إجراء جراحي ليكتمل الجسد ويصير مؤتلفاً مع نفسه.

وقد كان!

* * *

أسباب للسعادة .. أسباب للشقاء

أسباب للسعادة.. أسباب للشقاء[١]

كانت تنظر إلىٰ الساعة المعلَّقة علىٰ الجدار: توم.. توم.

إنَّها تشير نحو التاسعة تماماً. في عين اللحظة، كانت نغمات عصفور يغرِّد تنبعث من أحد الأركان، لتعلن عن زائر بالخارج. قام الزوج، اتجه صَوْبَ الباب فيفتحه، بينما اشرأبت هي برأسها لترىٰ هـٰذا القادم.

وفجأة ترامىٰ إلىٰ مسامعها صياح وتهليل، أعقبه فرقعات لقبلات وتربيت علىٰ الأكتاف. وأفسح الزوج الطريق للزائر لكي يدخل.

كانت شغوفة، تريد أن تتحقق من ملامح هـٰذا القادم الذي استطاع أن يتخطَّىٰ الحاجز المنيع ويجتاز تلك المنطقة الصعبة، ويدخل.

نعم، فهي منذ زواجها ـ والذي لم يمر عليه شهور قليلة ـ لم تجد أحد يحاول زيارتهم، أو الاتصال بهم، فزوجها حريص علىٰ ألَّا يقيم أي صداقات مع أحد، جميع أعماله وعلاقاته خارج نطاق البيت (صاحبي وصاحبك علىٰ القهوة)؛ هـٰكذا تعلَّم من والده الراحل، والذي كان يلقنه دروساً في الحياة قائلاً له: إنَّ المشاكل تحدث من كثرة الاختلاط، وتعدد العلاقات.

لذلك، حرص منذ اليوم الأول لزواجه، أن يفهمها وجهة نظره.

وفهمت..

وأصابتها الدهشة والامتعاض، لكنها اضطرت للصمت، والامتثال لرأيه.

---

(١) هـٰذه القصة مستوحاة من حادثة بشعة كان الزوج فيها ضحية مؤامرة دنيئة، دُسَّ له السم في كوب الشاي ومات، بينما العاشقان حكم عليهما بالإعدام. انظر: جريدة أخبار الحوادث، بتاريخ ١٣ يناير سنة ٢٠٠٥م، العدد ٦٦٧.

فهي ـ على أية حال ـ صارت في عصمته، وعليها أن تحقق كل رغباته وتعمل على تنفيذها. وهو ـ بالفعل ـ زوج طيب، حنون، لا يدخر وسعاً في إسعادها منذ رآها أول مرة بالبنك موظفة جديدة، وقد شعر أن هـٰذه الفتاة الرائعة ستكون من نصيبه. شعور طاغي تملَّكه، كانت نظرات الجميع تسدد نحوها. كوابل من المطر ، حتى عملاء البنك كانوا يطالبون بإنهاء مصالحهم، وأعينهم لا تفارق هـٰذا الوجه المشرق البديع.

نموذج رائع لكل معاني الْحُسْن والجمال، أنوثة من النوع الساخن. خفَّة ظل، ذكاء متوقِّد، شعلة نشاط.

قال في نفسه: «يا له من جسد ممشوق، مشدود كأنه رمح، تتوزع فيه التضاريس بالعدل، كأنَّمَا تم وزنها بميزان الذهب. تناسب مبهر بين ملامح الوجه الصغيرة، وعينان واسعتان، كحيلتان تشبهان أعين الغزلان، وخدود في طزاجة التفاح، وشفتان كقلبين، يسيلان شهداً بلون الفراولة.

رآها، وشعر أنَّ ثمة طلقات سريعة متوالية انطلقت بغتة لتخترق القلب مباشرة، فكاد يسقط من هول سحرها!

وهي لم تلتفت لغيره، فقد شعرت بصدق مشاعره والتي ظهرت جليَّة واضحة في عينيه، وملامح وجه الطفولي.

ولم يتمهَّل لحظة، أعلن ـ بكل صراحة ـ عن شدَّة إعجابه واهتمامه بها؛ ولأنَّه إنسان جاد، لا يعرف اللف أو الدوران، فقد طلب يدها مباشرة.

ووافقت. فهي كانت في حاجة ـ بالفعل ـ لأنْ تهدأ وتستكين بين يدي إنسان يحبها، ويوفر لها كل أسباب السعادة والهناء. بعد رحلة طويلة ومريرة من الفقر والقهر، بين سبعة من الشقيقات، وأب مطحون في مصانع الزيوت والصابون، وأم مسكينة لا تملك إلَّا الدعوات.

أمَّا هي، وبرغم فتنتها الطاغية، والتي تفجرت في أوائل المرحلة الإعدادية، والأعين كلها كانت تتجه نحوها. وانتقلت من مرحلة إلىٰ أخرىٰ، وجسدها البرونزي يزداد نضجاً واستدارة، لكنها لم تلتفت إلىٰ أعين الطامعين، ولا إلىٰ قلوب العاشقين. هدفها واضح، ونظراتها محددة، برغم أنها لم تسلم من بعض التحرشات أحياناً، ومحاولات كثيرة لاصطيادها، لكنها كانت علىٰ قدر كبير من الذكاء، فعرفت كيف تحافظ علىٰ هٰذا البستان البكر حين يحين قطافه.

الطريق أمامها طويل، وعليها أن تكمله، برغم الظلمة الحالكة التي تخيم عليه. وبرغم القيود والأغلال، والمشاق التي تقابلها، أصرَّت علىٰ المضيّ للنهاية، واستطاعت أن تصل لتحمل بين يديها شهادة التفوق وتحصل علىٰ وظيفة محترمة بأحد البنوك الأجنبية.

أما هو، فقد كان يتيماً، ترك له والده ثروة لا بأس بها وبعض القيم والْمُثُل التي كان يتخذها شعاراً له في حياته.

* * *

عليها أن تجني ثمار كدها طوال السنوات الماضية. زوج وسيم، شقة تطل علىٰ النيل، وإجازة شهر العسل في مدينة الخمس نجوم، والتي تطل علىٰ الشاطئ الشمالي برماله الذهبية المرامية، ومياهه النقية الصافية.

اغترفت من السعادة بكلتا يديها، وراحت تنهل حتىٰ الثمالة.

* * *

قامت من علىٰ الكرسي الفوتيه، وسحبت كاباً أحمر قاني ولفَّته حول جسدها بسرعة وتأهبت لاستقبال هٰذا الضيف الذي جاء، يبدو أن علاقته بزوجها قديمة وحميمة. كانت تتشوق لرؤية هٰذا القادم.

لحظات قليلة، ودخل الزوج يتأبط ذلك الضيف ووجهه يشع بالفرح والسعادة.

تقدم نحو زوجته، وقال: هـٰذا صديق طفولتي، وتوأم روحي. ابن عمي لزم.

ثم أشار نحو زوجته، وقال مبتهجاً: زوجتي، كما ترىٰ عرسان جدد.

ابتسم ابن العم، وهزَّ رأسه قائلاً: ألف مبروك.

ثم ظهر علىٰ وجهه أمارات الحزن والكآبة، مما أثار الزوج فوضع يده علىٰ كتفه في حنان قائلاً: خبرني يابن عمي، ماذا ألمَّ بك؟

وقبل أن يهم بالكلام، أشار نحو زوجته إشارة ذات معنىٰ. ثم أسرع وراءها بخفة وهمس بصوت خفيض: أعدي طعاماً.

مالت نحو زوجها وهمست قائلة: وقد مطت شفتيها وعقدت ما بين حاجبيها في اشمئزاز: أهـٰذا ابن عمك؟ لا يوجد أي شبه بينك وبينه. أنت أجمل منه ألف مرة. ثم طبعت قُبْلَةً سريعة علىٰ وجهه ودخلت.

* * *

عاد إلىٰ الأنتريه ليجد ابن عمه غارقاً في نوبة بكاء شديدة. اتسعت عيني الزوج، ورفع حاجبيه دهشة، ثم قال: ماذا ألمَّ بك يابن العم، أخبرني يا صديقي؟

هزَّ ابن العم رأسه، وقال في نشيج متواصل والدموع تتساقط بشدة: لقد ماتت أمي. لم يعد لي أحد في هـٰذه الدنيا، صرت وحيداً، شريداً بعد موتها، لا عمل، لا مأوىٰ.

هدِّئ من روعك يا أخي، الدنيا لا تزال بخير. كن مطمئناً تماماً، وتذكَّر أن الله ـ تعالىٰ ـ هو الذي يرزقنا، اتق الله، وكن من الصابرين، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

ثم أمسك بيده قائلاً: قم، وخذ حماماً دافئاً، وسوف أحضر لك ملابس لتستبدل بها ملابسك هٰذه.

استجاب ابن العم لذلك، ولما انتهىٰ من الحمام خرج وأثر الماء الدافئ علىٰ وجهه.

كان الطعام قد أُعدّ، فجلسوا جميعاً حول المائدة، وراحوا يتناولون الطعام.

ألقت الزوجة نظرة سريعة إلىٰ الضيف، كان أسمر الوجه، مفلفل الشعر، ذقنه نابتة، في عينيه حدَّة، وفي جسده صلابة.

ما إن ألقت تلك النظرة السريعة، حتىٰ اصطدمت بنظرة أخرىٰ مباغتة.

كانت نظرته مملوءة بالإعجاب، كادت تنطق، فقد تطاير وميض غريب من داخل عينيه كاد ينخلع لها قلبها.

اهتزت من الداخل، وشعرت كأن هناك مسٌّ من الكهرباء قد أصاب جسدها كله. ارتجفت كطفلة صغيرة. قامت، اتجهت نحو غرفتها، وجسدها ينتفض، جلست علىٰ حافة السرير، وراحت تتأمَّل صورتها في المرآة، قالت لنفسها: ما الذي أتىٰ به إلىٰ هنا؟!

كان ثمة شعور طاغٍ يؤكد أن مصيبة ما ستحدث، وسيكون هٰذا الضيف طرفاً فيها، لقد رأته من قبل، ظهر في نومها كثيراً. بل أحياناً تجلس مع نفسها لتراه أمامها يتحرك وعلىٰ وجهه الداكن ابتسامة غريبة.

لحظات، دخل زوجها. وضع راحته علىٰ جبهتها في حنان، ثم طبع قُبْلة دافئة علىٰ خدها، وقال: ماذا حدث لحبيبتي الغالية، هل أصابك شيء؟

هزت رأسها علامة النفي، وقالت: صداع خفيف.

جلس الزوج علىٰ السرير، بجانب زوجته، وقال مبتسماً: هٰذا ابن عمي،

سوف يبيت معنا الليلة، في حجرة الضيوف، وإن شاء الله غداً سأعطيه مفتاح شقة والدتي ـ رحمها الله ـ ليمكث فيها ما شاء، حتى تستقر أحواله ويعثر على سكن مناسب.

قال أيضاً: من ناحية أخرى، سأحاول ـ قدر استطاعتي ـ أن أبحث له عن وظيفة لائقة.

في الأنتريه، كانا يجلسان يشاهدان التلفاز، بينما الزوجة أعدت الشاي وأتت تحمله على صينية مذهبة.

رفع رأسه نحوها ونظر إلى وجهها وقال في صوت رخيم، بلهجة جنوبية محببة: لا أعرف كيف أشكركم على هذه الاستضافة، وهذا الكرم الزائد. واستقرَّت عيناه لحظات فوق ملامح وجهها المنمنم، ثم سقطت رغماً عنه إلى فتحة صدرها.

شعرت كأنَّما يده الداكنة قد امتدت وراحت تعبث بالداخل. تورَّد وجهها في خجل، وشاع في جنباته بهجة.

قالت: لا شكر على واجب، البيت بيتك. والتقت عيناها بعينيه، ولبثت لحظات كأنَّها الدهر.

* * *

أمسك بكوب الشاي وراح يستأنف حديثه الشائق المثير عن قريتهم البعيدة في أعماق الصعيد. ويعدد المواقف التي حدثت هناك. كان يتكلَّم بطريقة مرحة، وصوته العريض يجلجل بالضحك وهو يطلق بعض النكات الظريفة المضحكة عن أبناء قبلي.

ضحكوا جميعاً.

وعند الفجر، أوىٰ الضيف إلىٰ غرفته التي أعدت للنوم، واتجها الزوجان نحو مخدعيهما والنعاس يداعب جفنيهما.

في اليوم التالي، كانت الزوجة تمسك بورقة بيضاء، وقلم من الفحم، وراحت ترسم ببراعة وجه أسمر، له ملامح صلدة، وشارب كث، وشفتين غليظتين.

أمسكت بالورقة، كورتها، ثم ألقت بها من النافذة وهي تنظر بعينيها إلىٰ بعيد. كانت صورته الشاحبة، تتحرك أمامها في الهواء، يقترب.. يقترب، ثم يمد كلتا يديه ويحاول معانقتها، وتقبيلها، فيرتجف جسدها بقوة. فتقوم من مكانها بسرعة، تهرب إلىٰ التلفاز، أو تذهب إلىٰ الهواء الطلق بالبلكونة؛ لتنظر إلىٰ النيل وهو يتحرك في نعومة، وتنظر إلىٰ طوابير السيارات التي تزحف في الشارع كأسراب النمل.

الأيام تمرُّ، وصورته لا تزال ماثلة أمامها، تحاصرها بنظراته الجائعة، لا تعرف ما الذي يدفعها لأنْ تفكر فيه. تتمنَّىٰ رؤيته. تتأمَّل صورته؛ كلماته المرحة، نظراته العارية المكشوفة، تود لو يضمها بقوة إلىٰ صدره العريض ويعتصرها.

تحاول بكل ما تملك أن تطرد هٰذه الأفكار الشيطانية من رأسها. تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، تذهب لتتوضأ، تصليْ ركعتين. تشعر بالهدوء والسَّكينة، تمسك بالمصحف. تقرأ ما تيسَّر لها من القرآن، تبكي، تدعو الله من قلبها أن يسامحها علىٰ هٰذه الأفكار الشريرة، وأن يبعد عنها هٰذا الشيطان.

يتنامىٰ إلىٰ أذنيها نغمات العصفور.

إنَّه الباب. من الذي جاء، زوجها في مهمة رسمية خاصة بالبنك. وهي وحدها الآن، لعله زوجها، عاد من مهمته، ربما.

لا يزال العصفور يغرد، تتواصل نغماته، تقوم مسرعة.

من؟

أنا .

إنَّه هو ، يا إلـهي ! ماذا يمكن أن أفعل ، لا بد من طرده . إنَّه الشيطان جاء بنفسه ، ماذا يريد مني ؟

وينفتح الباب لتجده أمامها مبتسماً ، يسألها بلهجته الصعيدية : أين ابن عمي ؟

سافر في مهمة خاصة بالعمل .

نظر إليها طويلاً ، يكاد يلتهمها بعينيه . أحسَّت بالارتباك ، لم تستطع الكلام ، أفسحت الطريق قائلة بصوت خفيض ، كأنَّه ليس صوتها : تفضَّل .

ودخل .

* * *

إِنَّها صديقتي!

إنَّها صديقتي!

كانوا جميعاً ينتظرون، أعينهم تقدح بالشرر، تحدق في المارة، تمسح الطريق، البنايات الشاهقة، السيارات التي تمرق وهي تطلق صرخاتها المدوية.

كانوا جميعاً يتلهفون لرؤية هٰذا المجهول، والغضب يتصبب من كل ذرة في أجسامهم الضخمة. أكبرهم يقبض يده، يضرب بها في بطن الأخرىٰ، يتبادلون النظرات.

قال لهم الحارس: من فضلكم، قفوا جميعاً علىٰ جانب، المدير قادم. ثم أسرع بفتح البوابات الفولاذية العملاقة، لتمرق سيارته البيضاء إلىٰ الداخل.

أومأ المدير لموظف الاستعلامات برأسه، فردَّ عليه الآخر تحيته بصوت مرتفع، وانتفض الحارسان، اللذان كانا يتناولان طعامهما علىٰ جانب الكشك بجوار السور الحديدي، قائلين بصوت متحشرج، مرتفع: أهلاً سعادة الباشا.

وانطلقت السيارة البيضاء لتختفي في أحشاء المستشفىٰ، بينما الرجال الواقفون لايزالون في حالة ترقب وانتظار.

أما هي، فقد كانت علىٰ بُعْد خطوات، كأنها لا تعرفهم، تمسك الهاتف النقَّال (المحمول) تنظر إلىٰ شاشته المطفئة، تخترق بعينيها الْحُجُب البعيدة: «ماذا لو لم يحضر؟ كيف يكون مصيرها؟» فرصتها الوحيدة الآن، لتثبت للجميع مدىٰ صدقها، بالأخص زوجها، والذي لم يكن موجوداً بينهم. ليته كان حاضراً، إنَّها تحبه، لم يمض علىٰ زواجهما سوىٰ سنة، سنة واحدة، مرَّت كأنها نسمة هواء، كم تحب هٰذا الزوج! قلبها يهفو إليه، تتمنَّىٰ أن لو كان يقف بجانبها الآن ينتظر. ولكن خيراً له ولها ألَّا يكون بينهم الآن، فهو ـ برغم طيبته الزائدة، وقلبه المفعم بالحب والحنان نحوها ـ إلَّا أن الغضب ـ قاتله الله ـ يحوله إلىٰ كائن آخر، له ملامح أخرىٰ

غير التي تعرفها.

لكنها تبتسم من داخلها، فهـٰذا دليلٌ علىٰ مدىٰ حبه الزائد لها، وغيرته عليها.

ولما تكررت الرنات، ما بين التليفون القابع علىٰ ترابيزة الأنتريه، وبين الهاتف الذي في يدها، شعرت بالخطر. لم تكن مجرد رنَّات بريئة ومرت أو شخص ما أخطأ العنوان ثم اعتذر، أو حتىٰ معاكسة من المعاكسات العابرة وذهبت إلىٰ حال سبيلها، لا. لقد كانت رنَّات فيها إلحاح غريب، وإصرار لم تعهده من قبل.

قالت له بغضب: مَنْ أنت؟ ماذا تريد؟

جاءها صوته من بعيد، من أعماق الظلام: أشتاقُ إليكِ، وأتمنَّىٰ لو التقينا. لن تندمي أبداً.

أيها الوقح، عديم الأخلاق، إنَّك سافل!!

وراحت تنتقي من قاموس الشتائم والردح ما أسعفها به لسانها. ثم صفعت سماعة التليفون في وجهه. ابتسم زوجها، وقال لها وهو يربت علىٰ كتفيها ويحاول تهدئتها: لا عليك يا حبيبتي، إنهم ثلة من التافهين، الذين لم يجدوا من يقوّمهم.

وقبيل المساء، تصاعدت رنة أخرىٰ، وكان صوته يحمل نبرات جائعة، مشتاقة.

لم يكن أمامها إلَّا أن تغلق المحمول في وجهه، لكن تليفون المنزل راح يطلق رناته المتواصلة. ولما أمسكت بالسماعة، إذا بنفس الصوت يهاتفها باسمها. كادت تصعق، كيف عرفت اسمي أيها التافه. وانتزع زوجها التليفون من يدها ليسمع عبارات قذرة، وكلمات صادمة.

كشر الزوج وجهه، وانهال عليه سبّاً وتهديداً، ثم صفع السماعة بمنتهىٰ القسوة، وقد انتفخت أوداجه، واشتعل جسده بنار الغضب.

حاولت هي تهدئته قائلة له بحنان: لا تحزن يا زوجي الحبيب. إن شاء الله سوف

يكف عن الاتصال عندما لا يجد من يعيره اهتماماً. إنّنا بردنا عليه حتى ولو كان بالشتم هو انتصار له، فهو يبدو أنه يستمتع بالتوبيخ، أو ربما يجدنا في حالة انفعال وغضب، فيسعد هو بذلك، ويكون قد حقق مقصده.

قبض الزوج يده وضرب بها وجه الهواء، قائلاً: كلب.

بعد منتصف الليل بساعة ونصف تقريباً، راح الهاتف يطلق نغماته المزعجة. استيقظت الزوجة لتفاجأ بسيمفونية نابية من الكلمات والألفاظ المخجلة، والتي تتعرض لمناطق حساسة في جسدها، أمسك زوجها بالمحمول، وحاول أن يتمالك أعصابه قائلاً من بين أسنانه: حرام عليك، اتق الله يا أخي.

* * *

مع مرور الأيام، ازدادت حالات التوتر بين الزوجين، وتحوّلت الضحكات المرحة البريئة إلى ألفاظ حادة قاسية، يقذفها كل منهما في وجه الآخر. وراحت تحدث بينهما مهاترات ومشاجرات، وتعلو الأصوات. ثم تنهار هي على أقرب مقعد وتذهب في نوبات بكاء شديدة.

أمَّا هو، فكان يرتمي على كنبة الأنتريه ويتمدد، ليتأمَّل السقف وينظر إلى لا شيء، وشعور بالمرارة والألم يفتت كبده، ثم تظهر صورة ذلك الشيطان البغيض شاحبة أمام عينيه وهو يضحك ويقهقه وجسده يهتز وينتفض.

إنَّ ثمة أموراً تحدث بين الزوجين لم يكن أحد يعرفها، كان يحدثهما بها. بل والأنكى من ذلك، وصفه لعلامات بعينها في جسد الزوجة. كيف عرفها؟

مؤكد أن هناك علاقة خفيَّة تحدث بينهما، فاض الكيل عن حدِّه، كيف يحدِّثهما بعلاقاتهما العاطفية، أكلاتهما التي يفضلونها، حالات التوتر والقلق التي تحدث داخل الشقة.

حاول الزوج أن يتذرع بالصبر بعد أن عرض الموضوع على بعض العلماء بالمسجد.

لم يكن أمامه إلَّا أن يفرَّ إلىٰ قريته البعيدة في أحضان الريف، يتنسم الهواء الطلق، وتستريح أعصابه ثم يقرر ماذا يمكن له أن يفعل. فهو لا يحب أن يتخذ موقفاً يندم عليه بعد ذلك، وهي ـ علىٰ أية حال ـ زوجته التي ملأت عليه قلبه، فضلاً عن أسرتها المعروف عنهم الطيبة، وحُسْن الخلق.

* * *

علىٰ بُعْد خطوات من بوابة المستشفىٰ، كانت تقف تحت أفرع شجرة الجازورين العملاقة، تفكر، هل من الصواب لو قابلت هـٰذا الشاب الذي يطاردها، كما نصحتها صديقتها المخلصة (تهاني). إنَّ (تهاني) هي الصديقة الصدوقة التي تأمنها علىٰ كل أسرارها، تحدثها بكل خلجاتها، أفراحها، وأتراحها، علاقتها بزوجها، يا لها من صديقة ودود، تمسح بحنان علىٰ قلبها، وتقدم لها النصائح الغالية.

إنَّها صديقة قديمة، كانت زميلتها بالمدرسة، يذهبان معاً، ويجلسان في مقعد واحد. غير أن الحظ لم يحالفها في كثير من الأحيان، عندما تقدم الكثير من الخطاب لها، ولم يتقدم أحد لتهاني.

ولما قدر لها الزواج، شاء الله أن يتم توظيفها بإحدىٰ المدارس الإعدادية لتعمل سكرتيرة، بينما اضطرت (تهاني) لأن تعمل بنظام الحصة، وهو ما يعرف بالعقد المؤقت، بعد أن يأست من تعيينها وفضَّلت أن تكون بجوار صديقتها يجلسان معاً، ويتبادلان كل أنواع الحديث.

* * *

كانت تستند بظهرها علىٰ جانب الشجرة العملاقة، تفكر، هل سيأتي، لقد تجاوبت معه في الحديث، شجعته في المضي كما نصحها شقيقها الأكبر.

قال لها: عليك أن تتجاوبين معه للنهاية، حتىٰ يتم اصطياده.

قالت: إنه يطلب مقابلتي، يظن أنني امرأة سوء.

أجاب أشقائها : لن نستطيع أن نصل إليه إلَّا بهـٰذه الطريقة .

وتجاوبت معه حسب الخطة .

وقفوا جميعاً بجوار المستشفى الجامعي ، بينما وقفت هي على بُعْد خطوات تنتظر صاحب السيارة الخضراء ، والذي يرتدي قميصاً أسود برقبة صفراء ، وعلى عينيه نظارة قاتمة كما أخبرها . سيقول كلمة واحدة (عبده) لتكون هي كلمة السرّ بينهما . سيكررها ثلاثاً .

وفجأة ، انطلق أشقائها بسرعة الريح ، كانت سيارة خضراء تقف ، ويطلّ منها وجه يحمل نظارة بلون القميص الذي يرتديه . كان يقول : (عبده) ، لم يتم الثانية ، فقد أمسك به الأشقاء .

أمَّا المفاجأة غير المتوقعة ، حين علم الجميع أن هـٰذا الشاب المستهتر هو ابن عم (تهاني) الصديقة الصدوقة للزوجة المسكينة .

* * *

ليلة الدخلة

ليلة الدخلة

كانت (هبة) تستعد لأجمل ليالي عمرها. لم يبق غير سويعات قليلة، ويتحقق حلم حياتها بالفستان الأبيض الحرير، لتصبح بعد ذلك ملكة متوجة على عرش عشها الصغير.

كل شيء على ما يُرام. الشقة أصبحت الآن متأهبة لاستقبال أجمل عروسين (هبة) و (عمرو).

كل شيء في مكانه، بحسب ما قررت هبة، فقد ذهبت بنفسها منذ أسبوع لتشرف على وضع الأثاث. قامت هبة برص الأطقم الصيني والأكواب البللورية المزركشة، وفناجين الشاي والقهوة، وأطباق الخشاف والحلويات، والشوك والملاعق والسكاكين، والأنتيكات الملونة داخل النيش. وأيضاً في خزينة (البوفيه). ثم قامت بإلقاء نظرة متعمقة على المطبخ واطمأنت أن كل شيء في مكانه الصحيح.

ثم قامت (هبة) باللمسات الأخيرة في نشر الستائر الناصعة المزدانة بالورود والطواويس. إنَّ يدها البارعة قد استكملت الخطوط النهائية في ترتيب المسكن، وهو برغم بساطته فقد كان يجلل بالروعة والجمال، ويفوح من أرجائه رائحة محببة إلى النفوس، رائحة توحي بأن كل شيء جديد، فقد اختلطت روائح طلاء الجدران برائحة الموبيليا والسّجاد والمفروشات.

ابتسمت (هبة) وهي ترسل نظراتها في أنحاء الشقة، وشعرت أنها أسعد مخلوقة في العالم.

ابتسم (عمرو) قائلاً وهو يحاول أن يمسك بيدها: أخيراً يا حبيبة قلبي سيجمع الله شملنا في بيت واحد.. يااااه.

قالت: برغم سعادتي، إلا أنني سوف أشعر بشيء من الحزن لتركي هـذا

البيت.

حين ننتقل إلىٰ عشنا الجديد، ونتذوق طعم السعادة، فلن تستطيعين مفارقته، ستأتين إلىٰ هنا كضيفة وسوف تقولين لي: هيا يا عمرو لكي نعود إلىٰ بيتنا.

نظرت (هبة) إلىٰ بعيد، وقالت: أهم حاجة تعاملني برقَّة كما كنت تعاملني أيام الخطوبة، فاهم؟!

طبعاً يا حياتي.. بعد أن أذبح لك القطة!

القطة؟ يبدو أنك لا تزال تعيش في الأزمان الماضية. يا حبيب قلبي، لقد أصبحنا نحن اللاتي نذبح القطط، فاستعد يا بطل من الآن، عليك أن تمشي علىٰ العجين دون لخبطة.

اقترب عمرو من وجهها وهمس قائلاً: ولكن ما كل هٰذا الحس المرهف؟ إنَّ لمساتك الأخيرة بالشقة أثبتت أنك فنانة من الطراز الأول، علىٰ قدر عالٍ من الشاعرية والذوق.

أخجلتم تواضعنا.

علىٰ فكرة، أنا أعلم جيداً أنك صاحبة ذوق رفيع منذ التقينا أول مرة.

كيف؟

لأنك يا آنستي قد وافقتي علىٰ حضرتنا، فعلمت أنك تفهمين في الذوق.

لا، لا. وافقت عليك لأنني تأثرت لحالك. وجدتك مسكين، تستحق الشفقة والإحسان، فأردتُ أن أرفع من روحك المعنوية، وهٰذا ما جعلني أوافق عليك، برغم الكثير والكثير من العرسان الذين طرقوا بابي.

علىٰ كل حال، هٰذا أعظم شرف نلته في حياتي، وسأسعد أكثر لو سمحت لنا بقبلة، قبلة واحدة فقط، ولتكن من هٰذا الخد، بجانب هٰذه الغمازة الساحرة.

لا تتعجل يا حبي، لم يعد غير القليل وأصير بحوزتك، تأخذ بدلاً من القبلة

عشر قبلات!

صرخ عمرو قائلاً: ماذا؟ عشر قبلات فقط؟ ما هـذا الكرم الطائي؟ ولماذا كل هـذا التبذير يا عزيزتي؟

ضحكت في دلال وقالت: كل يوم قبلة، فأنا إنسانة مقتصدة، لا أحب الإسراف!

هز رأسه وغمر بعينه قائلاً: إذا كنت ستُحْصِينَ القُبلات، فسوف تتعبين كثيراً، إنَّ المرة الواحدة فقط ستعوض سنين المجاعة، وستكون بأثر رجعي، ثم إنَّ القبلات أمرها ميسور، إنني أبحث عما وراءها.

وهنا أراد عمرو أن يغضبها بشيء من المرح، فقال لها جاداً: تعال نتحدث عن اللحظة المرتقبة، كيف سنقوم بفض الخاتم؟!

حدقت في وجهه وقد تضرج وجهها بحمرة قانية، ومالت برأسها إلى صدره، وقالت: عمرو، لو سمحت. . أرجوك.

قال عمرو: ألست زوجتي على سنة الله ورسوله؟

نعم، ولكن أنت تعلم أن الزواج إشهار، ودخلة. حين يجمع الله بيننا في مسكن واحد، أصبح ملك يديك وطوع أمرك.

يا روح قلبي، لم تعد غير سويعات قليلة، بدأنا العد التنازلي.

ولو!

وهل قلت لك شيئاً، إنني أريد أن أخطط معك كيف سيحدث اللقاء الأول بيننا. أقصد مثلاً: ما لون القميص الذي سوف ترتدينه لي. أظن أن اللون الليموني سيكون ساحراً، ولو كان الفوشيا يكون أجمل. أمَّا الأسود، مع لونك الناصع، فإنه القتل بعينه. . إنَّها لحظات هامة وتاريخية يا حياتي، وأريد أن أعرف.

وهنا وضعت هبة أصابعها الرقيقة على فمه قائلة: صه. . كفى. لا تكمل أكثر

من ذلك وأخبرني أنت، هل تنوي أن تدخل أحد معنا ليلة الدخلة؟

ماذا تقصدين؟

أنت تعرف مقصدي جيداً، هل سيحضر أحد من أهلك، السِّت والدتك، أختك الكبرىٰ، جدتك، القابلة (المرأة التي تساعد الوالدة تتلقىٰ الولد عند الولادة).

فهمت. لا، لا. أظن أن أحداً لم يعد يفعل ذلك. وعلىٰ كل حال، هي حياتنا نحن، ولا بد أن نمارسها بالطريقة الصحيحة، وليس لأحد أن يتدخل، من هنا، أو من هنا.

عمرو، أريد أن أقول لك شيئاً في منتهىٰ الأهمية أهم من كل الكلام الذي قلناه.

شعر عمرو بالقلق، فرفع حاجبيه لأعلىٰ ونظر إلىٰ وجهها يحثها علىٰ الكلام.

عمرو.. أنا بحبك.

تورد وجهه، وأمسك بيدها، وضعها علىٰ فمه، لثمها. قال من أعماق قلبه: وأنا أيضاً.

* * *

العاصفة

العاصفة

هزت الأم رأسها، ونظرت إلىٰ السقف القديم الذي ابتدأت قشوره تتساقط بفعل العواصف والأمطار. والجدران التي تجردت من ألوانها بسبب الرطوبة، فأضحت كما لو كانت لوحات تجريدية قام بصنعها فنان تشكيلي نصف موهوب.

اجتازت نظراتها الحالمة الجدران العارية، واخترقت بخيالها الجامح الحجب البعيدة لترسم قصراً منيفاً به الخدم والحشم، والأشجار تحيط به من كل جانب. تدحرجت نظراتها الهائمة نحو طفلتها الخارقة الجمال.

همست: ما خلق هـٰذا الجمال الباهر إلَّا للمال والعز.

* * *

وطرق (حسن) الباب: ولم تكن أول طرقة، فقد سبقتها طرقات كثيرة. ما بين الطرقة والأخرىٰ مطالب يعجز عنها الجبابرة. لكنه لم ييأس أبداً، كان يحدوه الأمل في الاقتران بها.

يقول للمحيطين به: أنا أبغي الحلال، أسعىٰ إليه، وقلبي لا يبغي سواها، وهي تحبني، لماذا تقف أمها في طريقنا.

وفي لحظة ما، سقطت الأم علىٰ الأرض، حملوها إلىٰ أقرب مستشفىٰ لتفاجأ بعد ذلك أنها مريضة بالمرض الخبيث!

التفوا جميعاً حولها. وابتلع (حسن) الإهانات التي وجهت إليه من قبل، وراح يزور أم حبيبته في المستشفىٰ، ويوصي معارفه وأصدقاءه من الأطباء، والموظفين، فالجيرة لها حق، وهو إنسان شهم بطبيعته. فما بالكم إذا كانت المريضة هي أم (نجوىٰ) زهرة قلبه، وحُلْم حياته.

* * *

ابتسمت أم نجوىٰ بألم وقالت بأنفاس ضعيفة أوشكت أن تنقطع: حافظ علىٰ (نجوىٰ) يا (حسن)، ضعها في عينيك.

وانهمرت الدمعات من عين (حسن)، قال لها في انفعال صادق: نجوىٰ هي سر حياتي، هي جوهرة القلب، ثم رفع يديه وراح يدعو لها ـ وعينيه تفيضان بالدموع ـ أن يعافيها الله من مرضها ويردها إلىٰ بيتها سالمة.

وبكت الأم، وبكىٰ الجميع حولها.

* * *

الأيام تمضي، وحسن يفعل كل ما في وسعه، تكفل بمصاريف المستشفىٰ. وزيارة الأطباء لها بالبيت، وعمل الأشعات والتحاليل اللازمة.

لم يدخر جهداً في العناية بها، وتقديم الأدوية اللازمة، والأطعمة الجيدة، حتىٰ تأكل وتستطيع أن تتحمل وطأة الأدوية والأمبولات. فضلاً عن زيارات الست أم حسن المتكررة، والتي لا تدخل أبداً إلا وهي تحمل الفاكهة واللحوم بجانب المواد الأساسية من السكر والزيوت، والعدس... وغيرها.

وتمضي الأيام، لتستعيد أم نجوىٰ حيويتها بعض الشيء، وتصبح قادرة علىٰ ممارسة حياتها اليومية بشكل أفضل.

في الحقيقة، إنَّ أم نجوىٰ كانت قد تخلت عن أحلامها الكبرىٰ في تزويج ابنتها من ثري يستحقها وتستحقه حتىٰ كان ذلك اليوم.

كانت (نجوىٰ) هي قلب أمها، تحكي لها ما يدور بينها وبين زميلاتها بالمدرسة.

قالت نجوىٰ: إنَّ زميلتها (منىٰ) تحدثها دائماً عن عمها الذي يعمل منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وقد لف العالم كله، واستطاع أن يكوِّن ثروة عظيمة وهائلة، وهو لم يكن قد تزوج، إنَّه الآن في حاجة إلىٰ شريك يملأ حياته، ويشاركه هـٰذا النعيم العظيم، لتنجب له أطفالاً يصيرون أمراء وملوك.

كانت مجرد دردشة بريئة، لم يكن يخطر ببال الفتاة الصغيرة أنها ستكون هي تلك الزوجة التي تشارك هـٰذا الثري حياته. لقد تبادر إلىٰ ذهن الأم هـٰذه الفكرة سريعاً. قائلة في نفسها: «لماذا لا تكون نجوىٰ هي هـٰذه الزوجة؟!».

وراحت تحدِّث ابنتها عن الثراء، بوابة السعادة الأبدية: مجوهرات، سيارات، فساتين، وملابس آخر صيحة في العالم!

ذكرتها بالفقر وبيتهم الآيل للسقوط، ومرضها، ثم بكت بشدَّة.

ورغم حب (نجوىٰ) لـ(حسن)، وتمسّكها به، إلَّا أنها لم تستطع أن تقنع أمها بمزاياه وحبه وإخلاصه لها، ونبل أخلاقه معهم طوال فترة مرضها، فاستسلمت ليد أمها تحركها كيف تشاء.

علىٰ متن أول طائرة قادمة من أمريكا، جاء. كان طويلاً، فارع الطول، ممتلئ بالحيوية برغم التجاعيد التي تبدو علىٰ ذقنه ورقبته المتدلية. وشعره الفضي الناصع، وصلعته الأنيقة اللامعة، فهو برغم أصوله العربية ـ إلَّا أن ماء الحياة بالخارج قد تجلَّىٰ في وجهه وفي كلامه، فكان أشبه بالسياح الأجانب الذين نشاهدهم في مناطقنا السياحية.

في غضون أيام قلائل، كان كل شيء قد تم، مراسم الزفاف، والهدايا والتحف الثمينة، ثم الانتقال إلىٰ الإسكندرية حيث شقته التي تطل علىٰ البحر. بعدها طار العروسان إلىٰ النمسا لقضاء شهر العسل.

وهـٰكذا أحسَّت أم نجوىٰ أنَّها تقترب من تحقيق أحلامها القديمة، وهـٰذا ما يجب أن يكون.

* * *

وهناك، في النمسا كانت الفتاة الرائعة حبيسة البيت، لم يكن يسمح لها بالخروج إلَّا في أضيق الحدود، بحجة أن البلد هنا غير آمن، وتقاليدها الشرقية لا

تتناسب مع تلك الحرية التي تصل إلىٰ حد العبث والاستهتار.

خمس سنوات مرَّت، لم يتواجد خلالها إلَّا قليلاً، فأعماله الكثيرة تحتاج دائماً لأنْ يرعاها ويطمئن بنفسه علىٰ تلك الأموال التي يتم توزيعها في معظم العواصم العالمية.

هٰكذا كان يقول لها!

حتىٰ كانت الصدمة التي قضت عليها وعصفت بكل آمالها وأحلامها.

* * *

لم تستطع المسكينة أن تصنع شيئاً، أرسلت برسائل عديدة إلىٰ أمها، تحكي لها الجحيم الذي تحياه، بيد أن الأم كانت ترد عليها بكلمات مقتضبة تحمل معنىٰ الصبر، لعلَّ الله أن يهديه. ثم كانت تنصحها بالحصول علىٰ أكبر مكاسب ممكنة، فهي لا تدري ماذا يحدث غداً.

وحاولت الزوجة الشابة أن تمتثل نصائح أمها، لكنها لم تستطع، فقد كان حريصاً علىٰ ثروته، لا يستطيع أن يتنازل عن أقل القليل. إنَّها عمره كله، وزهرة شبابه التي تحمل مرارة الغربة، وطفح السنين.

واكتشفت (نجوىٰ) أنها لم تكن الزوجة الأولىٰ في حياته، ولا الثانية، فقد كان له زوجات كثيرات، يأت بهن من بلده، ثم يتاجر بهن.

عرفت ذلك من إحداهن، قالت لها: إنَّه يحصل علىٰ مكاسب كبيرة من أجل أطفاله الذين يحملون الجنسية، فالبلد هنا تشجع علىٰ كثرة الإنجاب بأي وسيلة، هٰذا كل ما يريد.

ولما واجهته بالحقيقة، ضمها إلىٰ صدره في حنان، وقال لها مؤكداً: لا تصدقين أي كلام يا زوجتي العزيزة، كيف أضحي بك وأنت أحب الناس. نعم، كان هناك زوجات أخريات، أنا أعترف لك بذلك، لكنك الزوجة رقم واحد، ولا يمكن أن

تتساوى معك أي امرأة في العالم، لقد فهمت طباعي، أمَّا هن فكن حمقى، فقمتُ بطردهنَّ وإرجاعهنَّ إلى حفر الفقر والجهل التي خرجن منها. هنا بلاد الحرية، ما نريده نفعله، كل ما نحلم به يتحقق، فهذه أرض الأحلام.

* * *

قال لها وهو يبتسم: لك عندي مفاجأة.

أي مفاجأة؟

منذ متى لم ترين أهلك؟

أظن خمس سنوات.

استعدي يا حبيبة قلبي، فقد قمتُ بحجز تذكرتين على أول طائرة تسافر إلى الوطن.

نظرت إلى وجهه تحاول أن تتأكد من صدقه، قالت: حقاً؟

أخرج التذكرتين ولوَّح بهما في الهواء قائلاً: نعم يا عزيزتي.

وأولادنا؟

هم معنا، لا تقلقي. ثلاثة من الأقمار.

* * *

وفي لحظة ما فاصلة، وعلى أرض الوطن حيث كانوا جميعاً في إجازة، حاولت أم نجوى أن تطالبه بالمزيد من الاهتمام بابنتها، بل وعليه أن يقدم لها الكثير من المال لكي تستعين به على تقلبات الدهر، ضحك الرجل من قلبه، قائلاً:

نجوى تستحق كل كنوز الدنيا، بل هي أغلى من ذلك بكثير.

ولما حان وقت الرحيل، وتجهز الجميع للعودة. وعند مدخل المطار ـ تحديداً ـ، سألها الزوج بهدوء: أين جواز سفرك يا حبيبتي؟

ها هو ذا .

ما إن أمسك به ، حتى أشار إليها وهو يمر من الحواجز الأمامية لصالة المطار : اذهبي إلى أمك ، لم أعد في حاجة إليك .

واستقل الطائرة ، ومعه الأقمار الثلاثة .

* * *

شريط الفيديو

شريط الفيديو

فتاة في المرحلة الجامعية ـ كلية الآداب ـ قسم علم نفس، ولها أخوات ثلاث، منهن من تدرس في المرحلة الثانوية، والأخريان في المرحلة المتوسطة، وكان الأب يعمل في محل بقالة، ويجتهد لكي يوفر لهم لقمة العيش، وكانت هـٰذه الفتاة مجتهدة في دراستها الجامعية، معروفة بحسن الخلق والأدب الجم، كل زميلاتها يحببنها ويرغبن في التقرّب إليها لتفوقها المميز.

قالت: في يوم من الأيام، خرجت من بوابة الجامعة؛ إذ بشاب أمامي في هيئة مهندمة، وكان ينظر إليَّ وكأنه يعرفني، لم أعطه أي اهتمام، سار خلفي وهو يحدِّثني بصوت خافت وكلمات صبيانية، مثل: يا جميلة أنا أرغب في الزواج منك. فأنا أراقبك منذ مدة، وعرفت أخلاقك وأدبك. سرت مسرعة تتعثر قدماي، ويتصبب جبيني عرقاً، فأنا لم أتعرض لهـٰذا الموقف أبداً من قبل، ووصلت إلىٰ منزلي منهكة مرتبكة أفكر في هـٰذا الموضوع، ولم أنم تلك الليلة من الخوف والفزع والقلق.

* * *

وفي اليوم التالي، وعند خروجي من الجامعة، وجدته منتظراً أمام الباب وهو يبتسم، وتكررت معاكساته لي والسير خلفي كل يوم، وانتهىٰ هـٰذا الأمر برسالة صغيرة ألقاها لي عند باب البيت، وترددت في التقاطها، ولكن أخذتها ويداي ترتعشان وفتحتها وقرأتها، وإذا بها كلمات مملوءة بالحب والهيام والاعتذار عما بدر منه من مضايقات لي.

مزقت الورقة ورميتها، وبعد سويعات دق جرس الهاتف فرفعته، وإذا بالشاب نفسه يطاردني بكلام جميل ويقول لي: قرأت الرسالة أم لا؟

قلت له : إن لم تتأدب ، أخبرت عائلتي والويل لك . وبعد ساعة ، اتصل مرة أخرىٰ ، وأخذ يتودد إليَّ بأن غايته شريفة ، وأنَّه يريد أن يستقر ويتزوج ، وأنه ثري وسيبني لي قصراً ، ويحقق لي كل آمالي ، وأنه وحيد لم يبق من عائلته أحد علىٰ قيد الحياة .

فرقَّ قلبي له وبدأت أكلمه ، وأسترسل معه في الكلام ، وبدأت أنتظر الهاتف في كل وقت . وأترقب له بعد خروجي من الكلية لعلِّي أراه ، ولكن دون جدوىٰ ، وخرجت ذات يوم من كليتي وإذا به أمامي ، فطرت فرحاً ، وبدأت أخرج معه في سيارته نتجول في أنحاء المدينة ، كنتُ أشعر معه بأنني مسلوبة الإرادة عاجزة عن التفكير ، وكأنه نزع لبي من جسدي . كنت أصدقه فيما يقول ، وخاصة عند قوله لي : إنَّك ستكونين زوجتي الوحيدة ، وسنعيش تحت سقف واحد ترفرف علينا السعادة والهناء . كنت أصدقه عندما كان يقول لي : أنت أميرتي ، وكلما سمعتُ هـٰذا الكلام أطير في خيال لا حدود له .

وفي يوم من الأيام ، وياله من يوم كان يوماً أسود! دمر حياتي وقضىٰ علىٰ مستقبلي ، وفضحني أمام الخلائق ، خرجت معه كالعادة ، وإذا به يقودني إلىٰ شقة مفروشة ، دخلتُ وجلسنا سوياً ، و نسيت حديث رسول الله ﷺ : «**لا يَخلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا كان ثالثهما الشيطان**» [رواه الترمذي] .

ولكن الشيطان استعمر قلبي ، وامتلأ قلبي بكلام هـٰذا الشاب ، وجلستُ أنظر إليه وينظر إليَّ ، ثم غشيتنا غاشية من عذاب جهنم ، ولم أدرِ إلا وأنا فريسة لهـٰذا الشاب ، وفقدت أعز ما أملك ، قمت كالمجنونة ماذا فعلت بي؟

لا تخافي أنت زوجتي .

كيف أكون زوجتك ، وأنت لم تعقد عليَّ؟

سوف أعقد عليك قريباً .

وذهبت إلىٰ بيتي مترنحة، لا تقوىٰ ساقاي علىٰ حملي، واشتعلت النيران في جسدي، يا إلـٰهي ماذا؟ أجننتُ أنا؟ ماذا دهاني؟!

وأظلمت الدنيا في عيني، وأخذت أبكي بكاءً شديداً مرّاً، وتركتُ الدراسة وساء حالي إلىٰ أقصىٰ درجة، ولم يفلح أحد من أهلي أن يعرف كنه ما في، ولكن تعلقت بأمل راودني وهو وعده لي بالزواج، ومرت الأيام تجر بعضها البعض، وكانت عليَّ أثقل من الجبال، ماذا حدث بعد ذلك؟

كانت المفاجأة التي دمرت حياتي، دق جرس الهاتف، وإذا بصوته يأتي من بعيد ويقول لي: أريد أن أقابلك لشيء مهم، فرحتُ وتهللتُ، وظننتُ أن الشيء المهم هو ترتيب أمر الزواج، قابلته، وكان متجهماً تبدو علىٰ وجهه علامات القسوة، وإذا به يبادرني قائلاً: قبل كل شيء، لا تفكري في أمر الزواج أبداً، نريد أن نعيش سوياً بلا قيد، ارتفعت يدي دون أن أشعر وصفعته علىٰ وجهه، حتىٰ كاد الشرر يطير من عينيه، وقلت له: كنت أظن أنك ستصلح غلطتك، ولكن وجدتك رجلاً بلا قيم ولا أخلاق، ونزلت من السيارة مسرعة وأنا أبكي، فقال لي: هنيهة من فضلك، ووجدت في يده شريط فيديو يرفعه بأطراف أصابعه مستهتراً وقال بنبرة حادة: سأحطمك بهـٰذا الشريط. قلت له: وما بداخل الشريط؟ قال: هلمي معي لتري ما بداخله، ستكون مفاجأة لك، وذهبتُ معه لأرىٰ ما بداخل الشريط، ورأيت تصويراً كاملاً لما تم بيننا في الحرام.

قلت: ماذا فعلت يا جبان؟! يا خسيس؟!

قال: كاميرات خفية كانت مسلطة علينا تسجل كل حركة وهمسة، وهـٰذا الشريط سيكون سلاحاً في يدي لتدميرك، إلا إذا كنت تحت أوامري ورهن إشارتي، وأخذتُ أصيح وأبكي؛ لأنَّ القضية ليست قضيتي بل قضية عائلة بأكملها؟ ولكن قال: أبداً، والنتيجة أن أصبحت أسيرة بيده ينقلني من رجل إلىٰ رجل ويقبض الثمن، وسقطت في الوحل، وانتقلت حياتي إلىٰ الدعارة، وأسرتي لا تعلم شيئاً

عن فعلتي، فهي تثق بي تماماً.

وانتشر الشريط، ووقع بيد ابن عمي فانفجرت القضية، وعلم والدي وجميع أسرتي، وانتشرت الفضيحة في أنحاء بلدتنا، ولطخ بيتنا بالعار، فهربت لأحمي نفسي واختفيت عن الأنظار، وعلمت أن والدي وشقيقاتي هاجروا إلىٰ بلاد أخرىٰ، وهاجرت معهم الفضيحة تتعقبهم، وأصبحت المجالس يُتحدَّثُ فيها عن هٰذا الموضوع، وانتقل الشريط من شاب لآخر، وعشت بين المومسات منغمسة في الرذيلة، وكان هٰذا النذل هو الموجه الأول لي يحركني كالدمية في يده، ولا أستطيع حراكاً، وكان هٰذا الشاب السبب في تدمير العديد من البيوت وضياع مستقبل فتيات في عمر الزهور.

وعزمتُ علىٰ الانتقام، وفي يوم من الأيام، دخل عليَّ وهو في حالة سُكْر شديد، فاغتنمتُ الفرصة وطعنته بمدية. فقتلت إبليس المتمثل في صورة آدمية، وخلصت الناس من شروره، وكان مصيري أن أصبحت وراء القضبان أتجرع مرارة الذل والحرمان، وأندم علىٰ فعلتي الشنيعة وعلىٰ حياتي التي فرطتُ فيها.

وكلما تذكرت شريط الفيديو، خُيِّلَ إليَّ أن الكاميرات تطاردني في كل مكان. فكتبتُ قصتي هٰذه؛ لتكون عبرة وعظة لكل فتاة تنساق خلف كلمات برَّاقة أو رسالة مزخرفة بالحب والوله والهيام.

واحذري الهاتف يا أختاه، احذريه.

وضعتُ أمامك يا أختاه صورة حياتي التي انتهت بتحطيمي بالكامل وتحطيم أسرتي، ووالدي الذي مات حسرة، وكان يردد قبل موته حسبي الله ونعم الوكيل، أنا غاضب عليك إلىٰ يوم القيامة.

ما أصعبها من كلمة!

وصلّىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

ذكر هذه الحادثة الشيخ أحمد بن عبد العزيز الحصين في رسالة صغيرة عنوانها: «شريط الفيديو الذي دمَّر حياتي»، وكان مما قاله في المقدمة: «فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أمَّا بعد: فهذه حادثة وقعت بين مجتمع إسلامي، وفي دولة إسلامية وهي واقعية، راح ضحيتها فتاة في مقتبل العمر بسبب كلمات معسولة تحمل بين طياتها تدمير عائلة بأسرها وربما مجتمع بأكمله.

هذه الحادثة وقعت في عام ١٤٠٨هـ وأخبرني بها ابن عم هذه الفتاة؟ وكان في يده شريط فيديو! وكان يتحسر على ضياع شرف العائلة الذي لُطِّخَ بالعار بسبب طيش هذه الفتاة، وانسياقها خلف الكلام المعسول؟ وهذه الحادثة ليست بالأولى، بل حدث منها كثير في بعض الدول العربية، ولفتيات من أكبر العائلات، وكم من فتاة قتلت بسبب فضيحتها! أو انتحرت، أو كانت نهايتها مستشفى الأمراض العقلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

* * *

(١) نقلاً عن أحد مواقع النت الإسلامية. http: //www. twbh. com.

فحية الفن

ضحية الفن[١]

اللحظة الحاسمة:

وضعت السماعة على صدرها، فجاءت ضربات القلب مطمئنة.

نظرت نحو الممرضة مستفسراً، الضغط ودرجة الحرارة طبيعيان، كان جوابها.

أخذتُ أقلب الملف الطبي: المريضة في العقد الثالث من عمرها، نتائج الفحوصات والتحاليل لم تظهر بعد، لكن الحالة مستقرة؛ الحمد لله.

هممتُ بالخروج، لكن صوت المريضة الغاضب جعلني ألتفت إليها، قالت في تذمر: متى تنتهون من الفحوصات؟

لقد سئمت.

اصبري واحتسبي، قريباً إن شاء الله تعودين إلى دارك.

بين غرف المرضى أتنقل، فهنا مريض في غيبوبة، وآخر يئن تحت وطأة الألم، وآخر لا ترى منه سوى الأجهزة التي استقرت في أنحاء جسده.

دكتور... دكتور... صوت قادم من ورائي.

التفتُ، وقفت الممرضة وقالت: المريضة في حالة حرجة.

أسرعت نحو المريضة.

دخلت الغرفة، نظرت إلى الأجهزة.

هبوط حاد في الضغط ودرجة الحرارة، ضربات القلب بدأت تضعف وتضعف.

حشرجة في صدرها، الأنفاس تتصاعد بسرعة.

---

(١) نقلاً عن أحد مواقع النت الإسلامية. http: //www. twbh. com.

إنا لله وإنَّا إليه راجعون، إنّها اللحظات الأخيرة.

اقتربت منها ورحت أردد: لا إلـه إلا الله.

دعوت الله أن يوفقها لتنطق بها، لتموت عليها وتُبْعَث عليها.

أطرقت بسمعي وصوبت بصري، انتظرت أن تردد معي، لكنها لم تستجب.

اقتربت منها أكثر وأكثر، وضعت فمي قريباً من أذنها، هتفت: لا إلـه إلا الله، لا إلـه إلا الله.

ترقب وانتظار كانت ثواني ولكنها تمر بطيئة جداً.

خشخشة تنبعث من صدرها، صوت قادم من أعماقها.

الآن.. ستتحرر الكلمات وتنطلق لا إلـه إلا الله.

انفرجت شفتيها، تحرك لسانها، انبعث صوت ضعيف لم أتبين ما تقول.

شعرت بالفرح وأنصت أكثر.

ارتفع الصوت أكثر، وانطلقت الكلمات المتعثرة.

ويا ليتها ما نطقت، يا ليتها ماتت قبل أن تنطق بها.

أظلمت الدنيا في عيني، وأطبقت بيدي على أذني.

شخصت عيناها إلى السماء، توقف كل شيء حي فيها.

لقد فارقت الحياة.

وكان آخر كلامها: (مقطع من أغنية).

* * *

نظرات أكثر واقعية

نظرات أكثر واقعية

لعلها المرة الأولىٰ التي ينفتح قلبها علىٰ مصراعيه، هي الصغيرة ابنة الخامسة عشر ربيعاً، لم تكن تشعر بهـٰذا الطعم من قبل، رغم أنها تراه وتستشعره من خلال المسلسلات والأفلام.

وأيضاً زميلاتها بالمدرسة.

حين أرسلت نظراتها إليه، أحست أنه الفتىٰ الذي تحلم به، نعم، هو كما رسمه خيالها تماماً، عليها أن تتشجع وتفصح عن هـٰذه العواصف، أقصد العواطف المحتدمة داخل قلبها، يا للحب ما أجمله وما أروعه!

هـٰكذا كانت تقف في المواجهة، تتأمَّل هـٰذا الفارس الأسمر، مفتول العضلات، كم تود لو امتدت يديه ورفعتها إلىٰ صدره، لتستمتع بموسيقىٰ الغرام وأناشيد الحب التي تهيمن علىٰ كل حواسها.

أمَّا هو، فقد كان مشغولاً بدراسته وممارسته للرياضة. هو طالب بكلية الطب، الذي يحارب الفقر بإصراره علىٰ النجاح. عليه أن يعمل قصارىٰ جهده ليحصل علىٰ التفوق، إنَّه المفتاح الذي سيحاول به أن يحقق أحلامه، ليس ثمة غيره.

كان يتحاشىٰ نظراتها، لكنه كان يتعمد الجلوس في البلكونة أحياناً، وهو يشعر أنَّ هناك أشعة غير مرئية تتسلل إلىٰ جميع جسده، وتخترق صدره، وتتدفق في مزيج عجيب ما بين البرودة والسخونة إلىٰ أعماق قلبه. يرفع رأسه فجأة ليجدها أمامه، لا تزال تسدد إليه تلك الأشعة الناعمة اللذيذة ليهتز كيانه، وتنتفض مشاعره.

أغلق الكتاب الذي لم يعد يراه، ورفع رأسه إلىٰ السماء الصافية والتي لم يكد يراها، تراوده فكرة التطلع إليها. وضع الكتاب جانباً، وانتصب واقفاً ليجدها وردة

يانعة، شديدة الطزاجة، لا يزال شعاع الطفولة يجري في ملامح وجهها بقوة.

أحسّ بالارتباك، ابتسم لها في خجل وهي تلوح له بيدها في الهواء في سعادة ومرح.

* * *

حين أغلقت النافذة، دخل غرفته ليجد صورتها في كل صفحة من صفحات الكتاب. هزَّ رأسه، وقال لنفسه: ما أجملها وما أروعها؟

تذكر كلمات أمه ذات مساء: جيران طيبون، في حالهم، لم يسمع أحد لهم صوتاً. ثم ابتسمت قائلة: لو كانت ابنتهم هـٰذه تكون من نصيبك، ابنة حلوة.

لكن والداه أجابها قائلاً: ابنك صغير، والمشوار لا يزال طويلاً أمامه، انتبه لنفسك ومذاكرتك أفضل، وحين تحصل علىٰ الشهادة الكبيرة، وتصبح دكتوراً محترماً، ستجدهن أمامك، ما أكثرهن.

مع مرور الأيام، وجد أن هناك حبالاً متينة تجره نحو البلكونة، لتلتقي الأعين، وتتبادل الهمسات والكلمات المفعمة بكل ألوان الرومانسية، مؤكد أن والده لم يمرّ بتلك التجربة، لم يشعر بطعم الحب ولوعة الاشتياق. إنَّه لا يعترف بلغة القلوب التي تهدر كأمواج البحر، والعيون التي تقتل في صمت وحنان، نعم تقتل تلك الصفات الرذيلة والقبيحة، والمتعجرفة ليحل محلها حالة من الوجد، وهالة من النور الذي ينير شوارع القلب، ويتحول الكون كله إلىٰ بستان يسيل رقة وبهجة وجمال.

ابتسمت إليه وأشارت بيدها في مرح، فانفتحت كل مداخل قلبه، وأخذته رعدة خفيفة.

رفع يده في خجل يشوبه شيء من الوجل، وهو يمسح المنطقة كلها بعينيه خشية أن يراه أحد.

فهو الشاب المؤدب، الملتزم المعروف بحسن أخلاقه. دخلت، لحظات ثم ارتفع صوت عبد الحليم يئن وهو يعلن شكواه على الملأ أنه وقع في براثن الحب، يا للمسكين!

ضحكت في براءة، فكانت ضحكاتها أشبه بجدول ماء صافٍ يتحرك مياهه الرقراقة في شرايين قلبه الأخضر، عليه أن يكون أكثر جرأة، فليتفق معها على موعد يتقابلان فيه، بعيداً عن الأعين المتلصصة.

هزت رأسها علامة النفي، أشارت نحو عنقها الأبنوسي بما يعني الذبح، فأهلها صعايدة ولن يسمحوا أبداً بذلك.

وماذا بعد؟

لقد أسرته بجمالها الساحر، ببراءتها، بخفة ظلها.

* * *

كانت الإيماءات والإشارات هي اللغة المتبادلة بينهما، ثم صفحات ملونة عليها قلبان لهما أجنحة كأجنحة الفراشات، وقصائد غزل، صار شاعراً، هو الذي لم يقرأ بيتاً واحداً في قصيدة.

الأيام تتوالى، سنة وراء سنة، وهي تزداد تألقاً وتفتحاً.

ما كادت السنوات الخمس تمضي حتى كانت الصغيرة قد اكتملت أنوثتها ونضج عقلها، وصارت تنظر إلى الحياة بمقياس واقعي.

الفارس الذي يراود خيالها ـ الآن ـ هو ذلك المتأهب، المستعد لإتمام الزفاف، القادر على حمل المسئولية وإدارة السفينة بحكمة.

أمَّا ذلك الحبيب، فهو لا يزال أمامه سنوات وسنوات.

* * *

ومع أول طارق يمتلك مؤهلات الزواج، كانت تزف إليه!

أمَّا صاحب الطب، فقد كان صادقاً مع نفسه هو أيضاً، حين قرر أن ينهي تلك العلاقة ويضع حدّاً لمشاعره، وكأنهما اتفقا على نظرة أكثر واقعية لهٰذا العالم.

وضع كل جهده وتفكيره في المذاكرة والنجاح، فهناك الجميلات كثيرات، وحين يمتلك مفاتيح الزواج، ويصير قادراً على إدارة السفينة بحكمة، وقتها فقط سوف يقرر أي فتاة تكون صالحة.

* * *

السقوط

السقوط

تلميذات كأنهن الأقمار، وورود في طريقها للتفتح، لهن أريج يفوح شذاه في سماء الطفولة سذاجة، وبراء. بيد أنهن بحكم معاشرتهن لزمن التلفاز والنت، والقنوات المفتوحة، كن يعلمن أن ثمة أموراً خطرة، عليهن أن يحذرن منها، كما أنهن لا يزلن في طور الطفولة برغم الأنوثة المبكرة التي تبدت على الكثيرات منهن، منطقة حرجة، بين الطفولة والمراهقة، البعض ينحاز نحو الطفولة، والبعض يتجهن - بقوة - نحو المراهقة.

ثمة تلقائية في النظرة إلى العالم، وبراءة العصفورات الملونة في مواجهة وحش ضارٍ يسمَّى الواقع، يفرد جناحيه الأسودين على العالم في تحد سافر. والويل كل الويل لمن تحاول الالتواء، أو تحاول كسر التابو، أو ما يعرف بالقانون الذي يحدد ملامح العلاقة بين العصفورات الطازجة، الساذجة، وهذا الواقع المضبب القاسي.

هكذا كن يتقدمن نحو البوابة المدرسية بملابس الإعدادي وعلى وجوههن الناصعة ابتسامات ذات معنى، تتحول عند بعضهن إلى همهمات لها دلالات محددة، ومعروفة.

أمَّا هي، فلم يكن يعنيها تلك الغمزات، بل كانت تشاركهن الابتسامة، حين ترسل نظراتها إلى شجرة الجازورين لتجده يقف منتصباً في انتظارها، وعلى وجهه الحليق الناعم تلك النظارة السوداء، وقد ظهر في ملابس أنيقة، أشبه بتلك الملابس الكاجوال التي يرتديها نجوم السينما العالمية.

في إيماءة سريعة، أشار نحو ساعة معصمه، وعقد إصبعين ودائرة. هزَّت رأسها ووضعت يدها على صدرها بما يعني الموافقة.

* * *

في الموعد بالضبط، كانا يسيران في طريق النهر، حيث مراكب العشاق تتهادى في نعومة فوق أديم الماء، والكلمات المغموسة بالحب والغرام تشنف أذنيها.

شعرت أنها بطلة، ليست أقل من بطلات تلك الأفلام التي تراها، أو الروايات الملتهبة التي تتجرعها. وليست أقل من زميلاتها أصحاب الحكايات الملونة بطعم العشق وهن يتهامسن عن لحظات مشحونة بالدهشة والاكتشاف.

ها هي تستمتع بنغمات صوته الشجية وهو يترنم بأغاني محمد فؤاد، وإيهاب توفيق.

ها هو النيل بمياهه العطرة يتحول على أنغام صوته إلى ورود ورياحين، والسماء الزرقاء تستحيل فراشات وديعة رقيقة، تحمل كل وهج قوس قزح.

همس في عينيها الواسعتين: أحبك.

أردف وهو يضغط على الحروف بقوة: لن أسمح لأي قوة في العالم أن تقف في طريق حبنا، أو تحول بيني وبينك.

قالت في صوت دافئ شبه منكسر: أنا كلي لك، ولن أكون لسواك، عليك الأمر وعليَّ الطاعة.

همس في أذنها:

«ورقة صغيرة نختم عليها بقلبينا لتكون شهادة حق أمام الله أننا أبداً لن نفترق».

أمسك بدبوس صغير، غرسه في إبهامها ثم ابتسم وهو يقوم بغرسه داخل إبهامه.

قاما بختم الورقة، وقال لها مبتسماً: ها قد صرنا زوجين أمام الله؛ بتلك الشهادة المختومة بدمائنا المحبة، لا يمكن لإنسان مهما كان أن يفرق بين قلبينا، ولا جسدينا.

* * *

وتمضي الأيام . . .

الطريق الذي يؤدي إلىٰ بوابة المدرسة، صار يؤدي إلىٰ حجرة مظلمة، في أحد الأزقة الضيقة، مقابلات، وقبلات، و كلمات معسولة، ولحظات ساخنة محمومة :

لا تنس أنك زوجتي!

أنت حبيبي، وكل شيء لك في هٰذه الدنيا .

وعلىٰ نغمات الحب، كان يقدم إليها السيجارة المحشوة بالمخدر لتتوهج أكثر، وتملك القدرة علىٰ العطاء .

وتحولت السيجارة إلىٰ جرعات من الهروين والكوكايين؛ لتصبح أسيرته، لا تفكر يوماً في الانفكاك منه مهما حدث .

وكانت أكبر لطمة أصابت قلبها، حين علمت أنه (لص) مجرم .

ثم كانت الضربة الأنكىٰ والأشد فتكاً، حين اختفىٰ تماماً، ولم يعد له وجود .

أين هو؟

لعله في السجن .

ربَّما سافر، أو مات!!

كانت المخدرات قد تمكنت من دمائها، وكان عليها أن تبحث عن وسيلة، أي وسيلة تستطيع بها أن تشبع رغبة جسدها الذي أنهكه الإدمان .

وكانت الفاجعة!!!

* * *

الحب ، وأشياء أخرى

الحب .. وأشياء أخرى

أخيراً، بعد قصة حب طويلة، استطاعت أن تقنعه بالمجيء إلى البيت لمقابلة الأهل والاتفاق على الخطبة وأمور الزواج.

هي الآن تنتظر، على أحرّ من الجمر، بين الحين والآخر ترسل نظراتها من خلال النافذة شبه المغلقة، كلما سمعت بوق سيارة قالت بشغف: وصلوا.

الجميع في حالة ترقب وقلق، فرغت الأم بمساعدة بناتها من ترتيب الشقة ووضع كل شيء في مكانه.

ترسل نظراتها إلى كل الأماكن التي ستطول أعينهم، الستائر مسدلة في سكون، مزهرية الورد تتصدر ترابيزة الأنتريه، عقود الفل تبعث أريجها الفواح على الجدران، المفرش المطرز الذي قامت بشغله بنفسها، والدبدوب العملاق الذي ينظر إلى بعيد كطفل، ليكن هكذا في تلك الزاوية، كل شيء على ما يرام، الفاكهة الطازجة، والعصائر المثلجة.

حتى الملابس التي يرتدونها، قامت بترشيحها لهم، ريثما يظهروا في صورة أفضل. أمَّا الكلمات التي سيتم تناولها فقد قررت الأم بموافقة بناتها على عدم التهاون في المطالب، والتمسك بأكبر قدر منها حتى يعرفوا قيمة البنت ويحافظوا عليها؛ لأنَّ ما كان سهلاً ضاع سهلاً.

بيد أن الرجل كان رافضاً هذا المبدأ، قائلاً لهم: أقلهنَّ مهوراً، أكثرهن بركة، كما علَّمنا النبي ﷺ.

لكن الأم ثارت وقالت في غضب: هذا كان زمان أيام سيدنا النبي والصحابة!! كانت حياتهم أفضل، وعيشتهم أحسن، لم يكن عندهم غش ولا خداع، كانت كل حاجة بالبركة، لكن الآن الدنيا تغيرت، والناس أصبح لها أنياب،

تقول أيام سيدنا النبي؟ ليتنا كنا نعيش في زمن النبي ﷺ.

لم يستطع الرجل إقناعهم، كان يريد أن يحكي لهم عن الإمام عليّ - كرَّم الله وجهه - وزواجه من سيدة نساء أهل الجنة، فاطمة ﵂، وكيف كان مهرها، والسيدة أم سليم صاحبة أغلىٰ مهر في الإسلام، لقد كان مهرها هو إسلام أبي طلحة زوجها ﵁، جلس الرجل يتذكر تلك القصص الرائعة التي كان يستمع إليها من العلماء في المساجد، ولكنه لم يملك القدرة علىٰ عرض هٰذه القصص مثلهم.

انتبه علىٰ صوت زوجته التي صاحت تحذره قائلة: هٰذه أمور نساء، نفهم فيها أكثر من الرجال، عليك أن توافقني الآن علىٰ كل ما سوف نقوله في المجلس، حتىٰ لا نختلف ونصير أضحوكة أمام الناس، صمت الرجل ولم ينطق!

قالت له: يا رجل، إنَّنا نعمل من أجل مصلحة البنت، والبنات مكسورات الجناح، حتىٰ لا تدعو علينا وتقول: منك لله يا بابا ضيّعت حقي!

* * *

كانت ساعة الحائط الكبيرة تشير نحو الخامسة مساءً.. عيناها تركزان علىٰ العقرب الكبير، تنتقل إلىٰ التليفون القابع فوق الطقطوقة في زاوية الغرفة.

هل سيأتون؟

اتجهت نحو غرفتها، راحت تتأمَّل نفسها في المرآة، ترىٰ، هل ستعجب أمه؟ عليها أن تبدو في بساطة وعفوية، لا داعي للتزين المفرط.

استبدلت ملابسها بتايير في لون الليمون، ينسدل علىٰ جسدها في بساطة ونعومة. ستجعل شعرها ذيل حصان، يتهادىٰ خلف الظهر، بل ليكن هٰكذا منسدلاً، أفضل.

عيناها اللامعتان تغوصان داخل المرآة، تخترق الحجب البعيدة لتراه أمامها، بابتسامته الهادئة، وصوته الرقراق الصافي الذي يسبح في فضاء قلبها، إنَّها تحبه،

تعشق هـٰذا الصوت الرائع، حين يلقي على مسامعها قصائد الغزل.

يااااه... أكثر من أربع سنوات وهما يتبادلان تلك المشاعر، كل الزملاء والزميلات في العمل يعرفون تلك القصة، وينتظرون نهايتها السعيدة، التي لا بد أن تتوج بالزواج.

هي تعرف أنه يعاني من أجل إعداد الشقة التي قام باستئجارها مؤخراً، كل مرتبه داخل جمعية، ووالده الذي بالمعاش يقوم بمساعدته.

الآن، دق جرس الباب، لقد حانت اللحظة المرتقبة. ألقت نظرة سريعة على وجهها في المرآة، وحاولت أن ترسم ابتسامة رقيقة لتخفي حالة التوتر التي تسيطر عليها. لن تخرج الآن، عليها أن تنتظر حتى يدعونها للخروج من غرفتها. بعد لحظات قليلة، اختلطت فيها الأصوات بالسلامات والقبلات، والمجاملات المعتادة، جاءتها شقيقتها الكبرى تدعوها للخروج، قالت لها وهي تبتسم: هيا.. عريس مثل فلقة القمر، مبارك عليك.

وتحركت في بطء وقد انكفأت رأسها على صدرها في خجل، صافحتهم ثم جلست وهي تبتسم.

كانت أعينهم تحدجها، تتأمل الملامح الدقيقة، الرقيقة المشربة بحمرة الخجل.

مضى بعض الوقت في تسال ومرح، وحكايات وقصص من أجل الوصال، والاتصال بين القلوب، والعقول.

الآن بدأ الجد، لتكن العواطف على جانب حتى يعودوا إليها من جديد. صار الوقت للعقل، عليه أن يطل برأسه دون وجل أو خجل. وكل شيء قسمة ونصيب.

لنضع النقط فوق الحروف.

وقامت هي، استأذنت ثم اتجهت نحو غرفتها، وكلها أمل أن يتفقا. واختفت الابتسامات ليحل محلها ملامح جادة، وحادة، وابتدأت المطالب من هنا وهناك.

عليكم أن تقوموا بتجهيز أربع غرف ونحن سنقوم بتجهيز المطبخ .

لا ، لا . كثير ، أربع غرف كثير . لماذا لا نقوم بتجهيز ثلاث غرف ، وأنتم المطبخ والغرفة الرابعة؟!

لا ، لا . هـٰذا ظلم ، المطبخ وحده سوف يكلف كثيراً جداً ؛ لأنَّه سيحوي الأجهزة الكهربائية الحديثة .

والقطن ، والتنجيد؟

عليكم .

ليكن مناصفة بيننا وبينكم .

لا .

هـٰذا ما قمت بصنعه مع ابنتي الكبرىٰ .

وهـٰذا ما لم نصنعه نحن ، إنَّه ظلم فادح .

لا نستطيع أن نتنازل عن خمس غوايش عيار واحد وعشرون .

والنجف والسجاد؟

عليكم .

كيف ذلك؟!

الجهاز يكون من محلات الموبيليا المعروفة .

ابن أختي أستاذ في النجارة ، وسيقوم باللازم .

لا ، هـٰذا كثير ، إنَّكم تطالبوننا بأكثر من الحد المعقول .

ابنتنا تستحق أكثر وأكثر .

إذا أردت أن تُطَاعَ فأمر بما يُستطاع .

وهل هـٰذا في غير استطاعتكم؟ لم نطلب أكثر مما يطلبه الناس .

لكن الرحمة مطلوبة يا سيدي، الولد يريد الحلال، وهو ينحت في الصخر، لقد دفع كل جهده وعرقه في الشقة، والشقة لا تزال تحت التشطيب.

هـٰذه مشكلته، والغاوي ينقط بطاقيته!!

لماذا هـٰذا الجفاء؟

وأنتم لماذا هـٰذا التعنّت؟

هيا بنا إذن.

ألف سلامة.

* * *

بعد عدة أيام تقابلا، وكان وجهه صامتاً علىٰ غير ما اعتادت.. سألته: ماذا بك؟

رفع حاجبيه دهشة وحدجها بنظرة جانبية قائلاً: حقاً، ألا تعرفين؟

هل هناك شيء أزعجك؟

لحظات صمت ثم وقف فجأة، واستدار إليها قائلاً:

أهـٰذا ما اتفقنا عليه يا حبيبتي؟

ماذا تعني، تقصد، شروط الاتفاق؟

نعم، لقد كان أهلك متشددين إلىٰ أقصىٰ درجة، وكأنهم لا يريدونني.

لا، لا يا حبيبي، وهل هـٰذا معقول؟ إنَّهم يحبونك جميعهم ويحترمونك جداً، فقط هم يعملون الصالح.

تقصدين يعملون لصالحك أنت!

وكل ذلك أليس لك، هل سيأخذ أحد منهم شيء؟! وأنا أيضاً ألن أكون لك؟ ثم إن الطلبات لم تكن ظالمة ومجحفة إلىٰ هـٰذا الحد.

كيف ذلك، وأنت تعلمين جيداً الظروف؟!

أولاً أنا لا أستطيع أن أتدخل في مثل هـٰذه الأمور إلَّا بالقدر الذي يعنيني، وهو أنَّني استطعت بالفعل أن أجعلهم يخفضون قيمة المؤخر، ثم إنَّني حبيبتك، أم لك حبيبة أخرىٰ غيري؟

أنتِ تعلمينَ مدىٰ حبي لك، وتمسُّكِي بكِ.

اثبت لهم ذلك.

كيف؟

لا أعرف، هـٰذه مشكلتك يا حبيبي، الرجل لا بد أن يظهر شجاعته وقوته من أجل حبيبته، وأنت من الممكن أن تعمل أعمالاً إضافية بعد الظهر.

بحثت كثيراً ولم أجد، ثم إنَّني أعمل وصاحب العمل رجل طيب ولا يتأخر عني، ماذا يمكن أن أفعل أكثر من ذلك؟

حاولي أنت أن تقنعي أهلك ليخففوا من شروطهم، وإن شاء الله سوف أحقق لك أكثر ما تتمنين حين يجمع الله شملنا وتستقر أوضاعنا، وتتحسن الظروف.

لقد فعلت كل ما بوسعي، لكن هناك أموراً لا أستطيع الخوض فيها، حاول أنت مع أهلك.

نظرت عيناه إلىٰ المدىٰ.. أحسَّ أن تلك التي تتحدث فتاة أخرىٰ، غير التي عرفها منذ سنوات، فقرَّر أن ينصرف.

* * *

بُوي فرند

بوي فرند

(الحرية) كلمة رائعة وجميلة، لها طعم السِّحْر، خاصة إذا كانت تعني الانفتاح علىٰ العالم والانغماس في ملذات الحياة دون ضابط أو رابط.

هٰكذا كانت ابنة السابعة عشر ربيعاً، صاحبة الأهداب الطويلة، والخصر النحيل.

عليها إذن أن تعلن عن هٰذا الجمال بكل شجاعة، ثمة أدوات هامة وضرورية من أجل هٰذا الجسد المشوق، كانت تقف أمام المرآة بالساعات الطويلة تتأمَّل هٰذا الوجه الوضيء الذي ينافس القمر في السماء.

عليها أن تتحرك، تخترق مناطق الحذر، لماذا لا تجرب أن يكون لها بوي فرند (صديق). ها هن زميلات المدرسة يخترقن هٰذه المناطق المحذورة دون وجل أو خجل. كم هن سعيدات بذلك، يلتفقن حول بعضهم لتسرد كل واحدة التجربة، كانت تنظر إليهن وتستمع بشغف، لكنها لم تكن تملك الجرأة علىٰ خوض التجربة. برغم أنها استمعت كثيراً إلىٰ تلك المذيعة الفاتنة التي كانت تشجع علىٰ مثل هٰذه العلاقات، حتىٰ تمتلك الفتاة القدرة علىٰ الاختيار، هٰكذا يفعل العالم المتقدم، إن المجتمع يتمسَّك بقيم بالية، وتقاليد قديمة، وربما تكون سبباً في هٰذا التخلّف الذي نعاني منه. وقد وافق المذيعة خليط من النساء والرجال، كانوا جميعاً يتحدَّثون عن الحرية.

كانت ترسم لنفسها عالم بهيج يحمل كل أمانيها، وكانت راضية بذلك، لكن صديقتها التي اقتحمت هٰذا العالم، دفعتها للخوض فيه، قالت لها:

لماذا لا يكون لك صديق؟

لم تنطق، لكن علامات التشوق كانت بادية علىٰ ملامح وجهها.

قالت صديقتها: شاب وسيم، مثقف، كل البنات يتمنون مصاحبته، لكنه أشار نحوك أنتِ. إنَّه يعرفك جيداً.

كيف ذلك؟ إنني يا عزيزتي صديقة لشقيقه.

وهكذا انفتح الباب أمامها لتكتشف بنفسها، كانت البدايات الأولى خجلى، ما لبثت أن اختفت لتصير حميمية، لم تعد تستطيع البعاد، تود أن تراه كل لحظة، كل ثانية. تنام على هدهدة صوته المشروخ من خلال الهاتف النقال.

في الصباح، تخرج بملابس المدرسة، وفي أقرب سلة مهملات تسقط من حسابتها كل أردية الأدب والوقار؛ للتحوّل إلى إنسانة أخرى لا تَمُتّ بأي صلة لتلك الفتاة الصغيرة ابنة السابعة عشر والتي تبدو للجميع داخل المنزل أنها الفتاة المطيعة، الخجولة.

وتتعدد اللقاءات لتتذوق طعم الحرية، تنهل منها بنهم كما كانت تسمع. ها هي ترتمي في أحضان المحذور، والذي تحوَّل بدوره إلى لذَّة ومتعة ليس لها قرار.

وفجأة - وما أكثر المفاجآت في حياة النائمين والسكارى والتائهين - يصلها صوت صديقتها عبر الهاتف:

لقد مات.

وكانت المفاجأة الثانية، أنه لم يمت بسبب تليف الكبد الذي أصابه، ولا من تلك المخدرات التي كان يتعاطاها دون علمها.

لقد.. لقد، يا إلهي، لقد مات بالمرض اللعين... مات بالإيدز.

تلك الوردة الرائعة كانت في طريقها للذبول، لم تعد تأكل، صارت رهينة المنزل، طعامها بكاء، ضحكاتها أنات، هالات سوداء صارت تحيط بعينيها الذابلتين.

كان الجميع يحاولون فك اللغز!

أخيراً، اضطرت تحت إلحاح الأم، أن تحكي لها كل ما حدث.

في المستشفى كانت ورقة التحليل هي شهادة الموت الذي ينتظرها.

بينما صورة شاحبة لمذيعة تضحك بقوة كأنها شيطان.

* * *

هذا هو الإدمان!

هذا هو الإدمان!

كانت تنحاز نحو الطفولة، بوجهها البرئ وجسدها الصغير، تلتصق بباب الحجرة، تتأمَّل شقيقها الأكبر وهو يتربع أمام هـٰذا الجهاز الغريب الذي يسمَّىٰ الكمبيوتر، وتسأل نفسها: كيف له أن يخوض بمفرده داخل هـٰذا العالم. حاولت أن تقترب منه علىٰ استحياء، تتأمَّل أصابعه وهي تتحرك فوق لوحة المفاتيح في سرعة ورشاقة، أو يده حين تقبض علىٰ الفأرة تحركها يميناً وشمالاً لتنفتح أمامها بوابات سحرية، تؤدي بها إلىٰ عوالم أخرىٰ بعيدة ورائعة.

وفي لحظة ما، قرَّرت في نفسها أن تطرق هـٰذا المخلوق العجيب، لم يكن شقيقها موجوداً، حين حاولت لم تستطع، شعرت أن ثمة مسافة شاسعة بينها وبينه، وكان عليها أن تحاول مرات ومرات و. . .

تلتصق بجانب أخيها الأكبر، تنظر إليه في دهشة وهو يقطع الفيافي والقفار، بساتين وألوان، جبال وأنهار، أناس بألوان الطيف، يتحدَّثون إليه ويتحدث إليهم.

لم تيأس.

ولما سافر شقيقها للبحث عن لقمة العيش في البلاد البعيدة، جلست مكانه، كان جسدها الصغير قد نضج واستدار، أصبح وجهها يحمل ملامح فتاة حسناء، تذكرت محاولاتها الأولىٰ أمام هـٰذا الجهاز الذي ينبض بالحياة، ها هي تراوده عن نفسه، مستخدمة معه كل الحيل، وأخيراً استطاعت أن تدخل، مع دأبها وإصرارها سمحوا لها بالدخول.

ساعات تمر، والليل يسري وأصابعها النحيلة لا تزال تتحرك الْهُوَيْنَا، والأيام تمضي، والفتاة ترتبط بأواصر عشق وهيام بهـٰذا الكائن الذي يسمىٰ (الكمبيوتر)، لم تعد تستطيع النوم، حاولوا إثناءها عنه. قالوا لها: صحتك، «... **وإن لبدنك عليك حقاً**». أومأت برأسها، أكدت أنها لن تحاول الدخول مرة أخرىٰ، وإذا حاولت فلن يستغرق الوقت كثيراً، لكن الوقت كان يتسلل من بين أصابعها دون أن تشعر.

قالوا لها: التليفون، الفاتورة، حرام.

ولما يأسوا من وعودها المتكررة، قرَّروا جميعاً قطع الحرارة عن التليفون.

وتمضي الأيام بطيئة، كئيبة، مكفهرة، كيف لها أن تعيش عن هـٰذا الموقع المثير؟ والذي استحوذ على كل حواسها ومشاعرها، وأخذ بمجامع قلبها وعقلها، لقد أدمنته، يا للإدمان اللذيذ، هي لم تكتفِ بوقوعها في شباكه، بل حاولت أن تقوم بنشره بين صديقاتها المقرَّبات، قالت لنفسها: «كيف لي وحدي أن أدمن هـٰذا الموقع؟!».

ثم هتفت بإصرار: «لا بد أن يتذوقنه كما تذوقته. ويقعن في أسْرِه كما وقعتُ أنا، ولكن بذكاء، سينشر بين الجميع، وسأحاول بكل حنكة ومهارة ألَّا أظهر في الصورة، هـٰكذا من بعيد لبعيد، فالموقع مثير، وسيكون مادة شهية للهمس على هوامش الحصص، وفي أثناء الفسحة.

حتى شقيقها الأكبر لم يسلم منها، بهدوء شديد كانت تتحاور معه من خلال شبكة النت.

قالت له: إليك هـٰذا الموقع، شاهده حين تعود من عملك. بعد فترة، اعترف شقيقها أنه أدمن هـٰذا الموقع، وأصبح أسيراً له.

ها هي بكل الوسائل والطرق، تحاول نشره بين زميلاتها، حتى المدرسات، كل يوم يأتي تتسع دائرة المحيطين به.

يا له من موقع! استطعت من خلاله أن أتعرف على ديني الصحيح، وأجد به جميع الإجابات الشافية التي تشغل عقل أي إنسان.

إنه ببساطة يحول المسلم من مجرد وعاء للتلقي، إلى إنسان مثقف، واعٍ، وداعٍ إلى الله على بصيرة وعلم.

أمَّا الموقع فهو: (صيد الفوائد) htt: /www. Saaid. net.

تعالوا معاً نجرِّب كيف نكون أسرى لهـٰذا الموقع، تماماً كما كانت هـٰذه الأخت المؤمنة، مدمنة!!

* * *

أرجوك سامحني

أرجوك سامحني

(مبروك) و(سعاد) قلبان في نقاء اللبن، في رقة النسيم، في روعة الفجر.

كان طالباً متميزاً، مثالياً، يحصل دائماً على أعلى الدرجات.

أمَّا هي فقد اكتفت بالشهادة الابتدائية، وقد حاول (مبروك) أن يثير حماسها لأنْ تكمل تعليمها، لكنها لم تحاول.

كانت أحلام (مبروك) كبيرة وهائلة، أكبر من تلك الحارة الضيقة، شبه المظلمة التي يقطن فيها مع أمه الأرملة، وأشقائه الثلاثة. وهـٰذا ما كان يجعله دائماً يحلم بمسكن نظيف، في حي راقٍ تحيطه الأشجار من كل جانب.

ولأنه يعلم تماماً أن هـٰذه الأحلام صعبة، فكان لا بد من الكفاح المستمر، المتواصل حتى يحقق ما يتمنى، وكان شعاره في الحياة: «**لكل مجتهد نصيب**».

أمه امرأة طيبة، الجميع بالحارة يحبونها، ويجلونها، فهي سيدة مكافحة، عاشت لأولادها، كانت تبيع في السوق من أجل توفير ما يلزم لهم، فالمعاش بالكاد يكفي، وطلبات الأولاد لا تنتهي، والحياة نار.

وكان أكثرهم طيبة ووداعة، وحناناً أيضاً هو: مبروك (ابنها الأكبر).

ولما عرض عليها الزواج من (سعاد)، ضحكت من قلبها وقالت: يوم السعد، يوم المنى، وهل هناك أجمل من سعاد؟! هل هناك أطيب أو أرق من سعاد؟!

* * *

نعم، تلك الحسناء، كانت تتغلغل في أعماق قلبه، منذ كانت طفلة صغيرة تحبو. تأمَّل ملامح وجهها ورسم بخياله صورة رائعة لفتاة تتحرك في الهواء، قال

لنفسه: (ما أجملها!!).

ولما كبرت، وصارت تتحرك نحو الأنوثة، كبر هو أيضاً وصار طالباً بإحدىٰ الكليات المرموقة. إنَّه لا يستطيع أبداً أن يتخيل إنسانة أخرىٰ بين أحضانه. سعاد بوجهها الصافي البريء كأنَّما قُدَّ من نورٍ، وضحكتها المتلألئة المضيئة التي تمس شغاف قلبه فيتهلل ويهتف باسمها.

أمها تعمل في السوق، تشتري وتبيع الخضراوات الطازجة، والفاكهة الملونة، تجلس بجوار أم مبروك، يتسامران ويتعاونان، هما أيضاً بينهما ود قديم، منذ أن نزحوا من قريتهم البعيدة، إلىٰ تلك المدينة وقطنوا ذلك الحيّ. طالما جمعت بينهما مواقف كثيرة، كشف عن حقيقة معدنهما الأصيل.

وكان الأبوان صديقين، يعملان في مصنع واحد للنسيج، يذهبان معاً، ويتناولان طعامهما من طبق واحد، ويصليان معاً في المسجد القريب.

إنَّ المتأمّل لهاتين الأسرتين، يشعر أن ثمة أواصر أقوىٰ من وشائج الدم تربط بينهما، لشدة التصاقهم وانصهارهم ببعضهم.

كان (مبروك) يحدث (سعاد) عن أحلامه، يشاركها لحظات السعادة حين يحصل علىٰ الشهادة بتقدير امتياز.

وكانت تعلن عن فرحتها بصدق، وتقوم بتشجيعه علىٰ مواصلة الدراسة والانكباب علىٰ المذاكرة ومواصلة الليل بالنهار.

إنها تحبه، وتحب كل ما يحبه، والتفوق من الأشياء الجميلة التي ترتسم ملامحها علىٰ وجهه، وهـٰذا ما كان يجعلها تدفع به للأمام، وهي تدعو الله من قلبها أن يحقق مراده، وأن يسعد قلبه الطيب حتىٰ يجمع الله شملهما تحت سقف واحد.

وهو - بجانب اهتمامه الزائد بدراسته ومذاكرته - كان يعمل أعمالاً إضافية في مصنع النسيج. إنَّه نفس المصنع القديم الذي كان يعمل فيه والده الراحل ووالد

محبوبته الغالية (سعاد)، وكان صاحب المصنع يقدِّره ويحترمه؛ لأمانته وشدَّة إخلاصه.

ولأنه شاب مهذّب، ومتعلم، فقد كان مسئولاً عن إدارة المصنع ومرتبات العمال.. العمال أيضاً يحترمون مبروك، يقولون: هو الشاب المتعلم، المتواضع، الذي لا يضيره أن يساعدهم بيديه في إصلاح الماكينات إذا لزم الأمر، بل ومجالستهم في أوقات الراحة والسَّمَر.

هٰكذا كان مبروك، يذهب إلىٰ حبيبة قلبه، والتي صارت زوجته بحكم عقد القران الذي تم. لكنه لم يكن يستطيع أن ينال منها شيئاً؛ لأنَّه يعلم أن الزواج الحقيقي لن يكتمل إلَّا عندما يجمعهما بيت واحد.

إنَّه يذهب إليهم كل أسبوع، حاملاً معه الكثير من الفاكهة، وبعض الهدايا اللطيفة لإخوتها الصغار (ست بنات وولد كانت هي أكبرهم).

وأم سعاد كانت تحبه كأحد أبنائها، وتشعر بالفرحة الطاغية تملأ قلبها وبيتها حين يهل عليهم بوجهه المبتسم دائماً، تدعو الله من قلبها أن يجمع بينهما في خير.

* * *

وتفوق مبروك.

وصار اسمه يتردد في أنحاء الجامعة، وما إن تخرَّج حتىٰ تلقفته إحدىٰ الجهات العليا في الدولة ليعمل بها، فهو الشاب الناجح، الذكي، الطموح، الذي يستطيع أن يؤكد ذاته بقوة.

وبعد سنة واحدة تقريباً، جاء إليه وفد من العاملين بتلك الجهة العليا، قالوا له:

هٰذا المسكن لم يعد يليق بشخصكم الكريم، لسوف نوفر لك مكاناً أفضل.

وكانت فيلا صغيرة في أحد الأحياء الراقية، وجهاز صغير يحمله في جيبه

يدعونه به حين يحتاجون إليه .

وكان لا بد من سيارة حديثة، لها زجاج مضاد للرصاص .

لقد صار (مبروك) في عالم آخر، يتعامل مع كبار رجال الدولة، من الوزراء والساسة، وأصحاب القرار .

لم يعرف أحد بالضبط عمل مبروك . فهو يجمع بين السياسة والدبلوماسية الدولية، مخابرات أمن قومي، أمن الدولة العليا .

كان ذكياً إلى أقصى مدى، يجيد فن التعامل بتلقائية مدهشة .

وهو ـ برغم ما وصل إليه في سنوات قلائل ـ لم ينسَ لحظة واحدة أمه، فقد أجلسها في البيت بعد أن وفر لها ولإخوته كل سُبُل العزَّة والكرامة .

ولم ينس زهرة القلب .

الحبيبة الغالية .

ثمرة الفؤاد . . سعاد .

* * *

أقبل مبروك في سيارته الفخمة، الفاحمة، وملابسه الأنيقة، ووجهه الطيب، المبتسم دائماً .

جاء ليتفق على مراسم الزفاف، ليعطي إشارة البدء للسعادة الأبدية أن تتحرك نحو مملكته التي صارت واقعاً ملموساً . وسعاد، حلم حياته وحبيبة فؤاده، والتي لم تنفصل قيد أنملة عن نجاحه وتفوقه .

ها هي اللحظة المرتقبة، المنتظرة منذ سنوات، ها هي قد حانت لجمع الشمل بين القلوب المحبة .

لكن (مبروك) تفاجأ بوجه غير الذي اعتاد عليه .

قالت له: لا أريدك!

رفع حاجبيه دهشة وخيم عليه حالة صمت، ثم قال في صوت متهدج: سعاد.. هل حدث مني شيء أغضبك ـ لا سمح الله ـ؟

قامت سعاد، اتجهت بوجهها الناحية المقابلة، قالت: مبروك، مثلي ليس لها مكان في مملكتك!

انتصب مبروك واقفاً، وقال: سعاد، أنت ثمرة القلب، وسعادتي الحقيقية لن يكون لها طعم، ولن تكتمل بدونك.

استدارت سعاد دون أن تنظر إلى وجهه، وقالت: أرجوك سامحني، لن أستطيع أن أكون الزوجة المناسبة لك، صدّقني، أنت تستحق زوجة تليق بك وبنجاحك المتواصل، زوجة مثقفة، متعلمة، تحمل شهادة مثل شهادتك.

ابتسم مبروك في حنان، وقال: أنت جوهرة البنات، أنت روح القلب.. إنني ـ بحق ـ أدين لله بالفضل أولاً، ثم أمي ـ متعها الله بالصحة ـ ثم أنت يا سعاد، هل نسيت وقوفك بجانبي، ودعواتك المخلصة؟ هل نسيتِ يا سعاد، أنا لم ولن أنسى أبداً؟

* * *

حاول مبروك، لكن محاولاته جميعها باءت بالفشل.

قال لها: سأعطيك مهلة أسبوعين، تفكرين بهدوء وروِيَّة، ولك الخيار، واعلمي أنَّك في القلب مهما حدث.

ومضى الأسبوع الأول، ثم الأسبوع الثاني، ولم تعدل سعاد عن موقفها الذي أخذته.

قالت له: أتمنى لك التوفيق والسعادة دائماً، ثم بكت في تكتم.

لكن مبروك لم يتمالك نفسه وهو يبتسم في وداعة، فتساقطت دمعة كبيرة تدحرجت مسرعة لتختفي أسفل ذقنه.

قال لها: لك حقوق عليَّ يجب أن تحصلين عليها بصفتك زوجتي شرعاً.

ثم قدم لها مبلغاً كبيراً من المال داخل مظروف، قائلاً لها: مؤخر الصداق، ومتعة سنة، وقيمة العفش.

ثم انطلق إلى الخارج بسرعة.

* * *

بائعة التين

بائعة التين

كان يمر عليها كل صباح بسيارته الفخمة ذات الأوجه الزجاجية القاتمة، يقف بجوارها ثم يضغط على زر فينزلق زجاج النافذة في نعومة إلى أسفل ليبدو وجهه القاني مبتسماً، وشعره الفضي الناعم، ورائحته العطرة. يمد يده إليها بورقة من فئة الخمس جنيهات، ثم يلتقط منها ثمرة تين واحدة وهو يتأمل صفحة وجهها الخمري، وشعرها الكستنائي الذي ينساب في نعومة وإهمال خلف ظهرها، ثم ينطلق بسيارته وهو يتمتم ببعض كلمات الإعجاب والدهشة التي تختلط بصوت الموسيقى الهادرة المنبعثة من سيارته.

هٰكذا كل صباح كان حتماً يقف بسيارته ليمد يده بتلك الورقة النقدية، ويتأمّل وجهها الطفولي ويبتسم، ثم يلتقط ثمرة التين الناضجة، ويمضي مخلفاً بعض الموسيقى الصاخبة الممزوجة بكلمات الإطراء والغزل.

أما هي، فقد كانت تأتي من القرية البعيدة، تحمل حبات التين الشوكي على رأسها، وحلم العودة مرة أخرى، وقد تحوّلت تلك الحبات إلى نقود تشتري بها ما يلزم من سوق المدينة. ثم تتهادى كمهرة بريّة إلى قريتها الخضراء في أحضان النيل.

لم تكن تدري ـ تلك الفتاة الصغيرة ـ صاحبة الجمال البريء الطازج، والأهداب الطويلة، والوجه الطفولي المتوهج بحمرة الخجل، أنها ستتحول في لحظة إلى حديث المدينة الكبيرة، وسوف تكتب عنها الجرائد الكبرى والمجلات الملونة، وتصير مادة إعلامية خصبة للبرامج الإذاعية والفضائية، حتى صار صوتها المتهدج، الساذج، مميزاً في آذان المستمعين.

نعم، إنَّه ذلك اليوم الذي وقفت فيه السيارة كالمعتاد، ثم هبط منها لأول مرة كهل، مهول، له شعر فضي ناعم، ورائحته زكية، ووجه أحمر يشع بهجة ومرح.

قال لها: كم تساوي كل هٰذه الحبات من التين؟

أجابت في بساطة: عشرون جنيهاً، تزيد قليلاً أو تنقص. ولوَّحت بيدها البيضاء في الهواء.

ازدرد الكهل ريقه بصعوبة، وشعر برغبة متأججة تفور بداخله كلما نظر إلىٰ شفتيها الحمراوين، المعجونتين بالكريز، تتسلل عينيه النهمتين إلىٰ جسدها الصغير المعجون بالشطة، المشتعل أنوثة برغم صغرها. تجمدت نظراته عند فتحة صدرها وحاول أن يغوص بعينيه داخل طيات ملابسها.

إنَّها تشبه التين الشوكي إلىٰ حد كبير.

أخرج الكهل حافظة نقوده ومد يده بورقة كبيرة، وقال لها: هـٰذا قيمة التين، وعليك الذهاب به إلىٰ البيت، فزوجتي في انتظارك، بسرعة.

أمسكت الصغيرة بورقة البنكنوت في دهشة وقالت: لكن ذلك كثير، كثير جداً يا سيدي، إنَّ البضاعة كلها لا تساوي ربع هـٰذا المبلغ.

قهقه الكهل، ثم قال: تريدين ورقة أخرىٰ مثلها، معي كثير.. كثير!

رفعت الصغيرة رأسها إلىٰ السماء، كانت هناك طيور تضرب بأجنحتها في الهواء، شعرت كأن لها جناحين تود أن تطير بهما، تطير إلىٰ قريتها البعيدة لتقبل أمها المريضة، وتروي لها قصة الورقة الغالية وهـٰذا الرجل الطيب العطوف. لسوف تشتري لأمها الدواء، والحلوىٰ لأخيها الصغير، ستبقي بعض النقود لتشتري فستاناً بترتر مثل ابنة عمتها.

قالت: وأين البيت؟

نعم، نعم، ها هو ذا علىٰ بُعْد أمتار قليلة. إنَّ ذلك سيسعد زوجتي كثيراً، فهي مسكينة لا تستطيع الحركة، إنَّها امرأة طيبة جداً سوف تحبينها علىٰ أي حال.

وقامت الصغيرة، تحمل التين علىٰ رأسها، ووجهها يبتسم في سعادة، أشار الكهل نحو إحدىٰ البنايات العملاقة، وقال لها: انظري، تلك البناية. في الدور

الرابع، ستكون في انتظارك.

حملت الصغيرة جسدها المتفجر بالأنوثة، وراحت تتحرك بخفة نحو الهدف وعلى رأسها قُفَّة التين.

بينما الكهل وضع على وجهه نظارة قاتمة وراح يتأمّلها بإعجاب، وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه.

* * *

خلع نظارته وابتسم في نفسه قائلاً: هي هي اللحظة قد حانت.

ما كادت ترتقي الصغيرة الدرجات الأولى للسلم، حتى كان الكهل قد استقل المصعد، وفي غمضة عين كان داخل الشقة.

ضغطت الفتاة على زر الجرس، وكان الباب موارباً بعض الشيء، سمعت صوتاً من الداخل يسمح لها بالدخول. دخلت الصغيرة بما تحمل على رأسها وهي مدهشة بما ترى. كانت تتأمَّل أرجاء الشقة العامرة بالأجهزة الحديثة، والأثاث المبهر.

يا إلـهي، ما كل هـذا النعيم! موسيقى كلاسيكية تنبعث، ودُمى تكاد تنطق.

لحظات وإذا بالكهل يخرج إليها وقد تخفف من ملابسه وارتدى سترة رقيقة عليها خطوط في لون الذهب، أمسك بالريموت وضغط عليه فانغلق باب الشقة.

ابتسم في تودد ومد يديه: مرحباً.

أحست الفتاة بشيء من القلق، ضمت ما بين حاجبيها وقالت: أين الست هانم؟

انفجر بالضحك، وقال: هانم؟ تعالِ إليَّ أيتها القطة الصغيرة، كم أشتاق إليك كثيراً، سأقدم إليك كل ما تشتهين.. هدايا، ملابس، حُلِيّ، فلوس.. هلمِّي إلى أحضاني.

تراجعت الفتاة إلى الوراء وقد سقط عن رأسها كل حبات التين. ضحك الرجل

الكهل، وقال: لا بأس، تعالِ أيتها الساحرة، لا تحاولين الخروج، فقد أغلقت جميع الأبواب.

تذكرت الصغيرة قريتها الخضراء، وأمها الطيبة، ونصائحها الدائمة.

قالت في حدة وقد تبدلت ملامح وجهها، فصارت كنمرة شرسة: لقد أخطأت يا سيدي في العنوان، أنا لست كمن تظن.

لكن الذئب لم يمهلها، هجم عليها في ضراوة، جذبها بعنف، مزق ملابسها، حاول ضمها إلىٰ صدره، انفلتت منه، كانت المسكينة تصرخ، وتصرخ بكل ما تملك من قوة. اقترب منها وقد كشر عن أنيابه مبتسماً.

قالت له: حرام عليك، أنا لست منهن، أرجوك.

أحاطها بذراعيه بقوة، لكنها استطاعت أن تدفعه بعيداً، ثم هرولت مسرعة نحو البلكونة، وفي لمح البصر كانت قد رمت بنفسها من الطابق الرابع بين ذهول الرجل ودهشته.

أطلق الرجل صيحة مفزعة، وجرىٰ نحو البلكونة ليجد الفتاة متكومة علىٰ الأرض، والناس يتجمعون حولها.

والبعض يشير لأعلىٰ...

* * *

قبض الريح!

أو (حكاية سهلة اليتيمة)

قبض الريح!

أو (حكاية سهلة اليتيمة)

كانت الفرحة العارمة، قلوب ترفرف، وأيادٍ تصفق، وزغاريد تتماوج في فضاء القرية، الجميع مبتهج منذ زمن بعيد لم تدخل الفرحة البيت، منذ الحادث المروع الذي راح ضحيته الأب، وولده الأكبر، وسالت دماؤهما على أسفلت الطريق.

ها هي تدق عليهم الباب، وبقوة. اختارت بيتهم دون سائر البيوت، وكأنها أرادت أن تمسح بحنان على صدر هذه الأسرة التعيسة؛ لترسم الفرحة والسعادة على قلوبهم الطيبة، وتداعب أحلامهم البسيطة.

كان خليجياً، بدا ذلك من لهجته، وملابسه الحريرية الناصعة، والتي تفوح برائحة النفط. أكد ذلك جارهم الذي دلَّه عليهم، والذي تعرَّف عليه قدراً عن طريق أحد الأصدقاء بالعاصمة. حين التقى به سأله عن زوجة صغيرة، تمتاز بالجمال الباهر، شريطة أن تكون من عائلة طيبة، وحبذا لو كانوا رقيقي الحال، حتى يستطيع إسعادهم وتقديم كل ما يمكن أن يدخل السرور على قلوبهم.

وصمت الرجل بعض الوقت، وراح بذاكرته يمسح بيوت القرية بيتاً بيتاً، يسترجع وجوه الجميلات، وسرعان ما تهلل وجهه وأطلقها عالية مدوية:

نعم، أعرف، وهل هناك غيرها، (سهلة) اليتيمة، هي أرق من النسيم، وأروع من القمر، صغيرة لكنها ساحرة، أستطيع أن أدلّكم عليها.

ما كادت الأقدام تطأ أرض القرية، حتى أشار الرجل نحو بيت متهالك، أوشك على السقوط، مشيد من قوالب الطين اللبن المعجونة بالتبن، والمسقوفة بعروق الأخشاب وجذوع النخيل.

أشار الرجل بحماس: ها هو البيت يا شيخ.

* * *

لم يكن الشيخ الخليجي صاحب اللحية الناصعة يظن أنها بهٰذه الروعة، يا له من جمال طازج، بكر، قادر على إعادة الشباب إلى جميع أوصاله!!

دس الشيخ يده داخل صدره مبتسماً، وأخرج حافظة متخمة، سحب منها رزمة من أوراق خضراء، لم يرها أحد من قبل ووضعها في صينية الشاي، ثم أشار نحوها وقال: ما خلقت تلك الغزالة إلا للقصور، والمشي فوق الديباج، وريش النعام.

أطلقت النسوة الزغاريد، وعدَّل الرجال من عمائمهم، وانبسطت أساريريهم، تعبيراً عن الفرحة، والخبر الذي هبط من السماء، فمؤكد أنه سيطولهم جميعاً، ولِمَ لا؟! أليست ابنة أخيهم الغالي عليه ألف رحمة ونور!

شخص واحد فقط هو الذي لم يشاركهم تلك الفرحة. إنَّه العم الأصغر، فهو الطالب بالجامعة، المتعلم الوحيد بينهم الذي عارض هٰذه الزيجة. قال لهم: إنَّكم تقدمونها للذبح نظير حفنة دولارات.

لم يعطوه فرصة لتوضيح الأمر، زمجروا، وخبطوا عصيهم وبنادقهم العتيقة في الأرض بغضب.

قالوا لبعضهم: لا يزال صغيراً، والكتب التي يقرأها لحست مخه وستودي به إلى التهلكة.

قالوا له: أنت الصغير تتكلَّم كثيراً دون امتلاك الخبرة، والخبرة في الحياة وليست في الكتب!

قال لهم: ماذا يعني أن يتزوجها رجل في عمر جدها؟!

قالوا: «نحن في زمن الماديات، معك قرش تساوي قرش. وهٰذا كنز ساقه الله إلينا هل نعترض؟ نرفس نعمة الله ونقول: (لا يا رب)؟!! ستنفتح بلاد الذهب والدولار لنطير إليها دون وجل، ونعود محملين كما يفعل الكثيرون».

قال لهم: وشرطه أن يكون الزواج عرفياً، أرضيتم بالهوان.

قالوا: لا عليك، فقد سألنا شيخ المسجد الكبير، فأفتى بجواز ذلك، ما دام الرجل سيتزوجها علناً أمام الجميع.

والبنت؟

البنت لا تزال صغيرة، لا يغرنك جسدها الفاتر، هي لا تعرف مصلحتها، وقد أقنعتها أمها وخالتها، وعمتها!!

ولما حاول الاعتراض في إحدى الجلسات، كادت أعينهم تخرج من محاجرها من شدة الغضب، بينما الشيخ الخليجي مد يده بسرعة وأخرج مجموعة من أوراق البنكنوت ورمى بها في حجره.

لكنه رفضها بشدَّة وقام من المجلس عابساً، ثم توجه نحو حجرتها الداخلية.

* * *

حاول العم الأصغر أن يقرأ ملامح وجهها، شعر أنها حائرة بين الرفض والإجابة. قال لها: خبريني بصراحة يا (سهلة)، ما رأيك؟

لم تستطع (سهلة) الرد، فقط نظرت بعينيها الواسعتين إلى بعيد، ثم ابتسمت وقالت: كما يرون!

كانت تنظر بعين خيالها إلى قصر منيف به الخدم والحشم، والأشجار العملاقة تحيط به من كل جانب، في حين السيارة التي تشبه مركبة الأحلام المسحورة تنتظرها بالخارج.

هزت رأسها وقالت في صوت متهدج:

بصراحة يا عمي، أريد أن أكون سبباً لسعادتكم جميعاً، سأشتري لكم الأبقار والجاموس، سيكون عندنا أرض تطرح الخير ألواناً، ستمتلكون جوازات سفر تطيرون بها إلى أي مكان، لن أكون يوماً بخيلة، حتى الفقراء أمثالنا الذين يعيشون بالقرية سأعمل على إسعادهم دائماً.

حاول العم أن يفسِّر لها الموقف بطريقة أخرىٰ، لم يستطع، كانت الفكرة قد سيطرت علىٰ الجميع، وصارت الفرحة طيوراً ترفرف في أجواء البيت.

ها هي تزف إليه.

وفي أكبر فنادق العاصمة كانت ليلة من أجمل ليالي شهرزاد، حضرها أعداد لا بأس بها من المعارف والجيران، قال البعض منهم: يا لسهلة المحظوظة، وقعت علىٰ كنز، وقال آخرون: هي اليتيمة، المسكينة، طرق السعد بابهم.

شهر، شهران، ثلاثة.

وظهرت علامات الحمل علىٰ سهلة. زفت الخبر السار إلىٰ زوجها، ابتسم وقال لها: خير والله، الله يساعدك!

لم تكن (سهلة) تدري أن زوجها الخليجي يضمر في نفسه أمراً.

وفي لحظة ما مباغتة، اختفىٰ، لم يستطع أحد التوصل إلىٰ مكانه.

محاولات يائسة، ورسائل عبر الإنترنت، الصحافة، الفضائيات، قام بها عمها الأصغر، لكنها باءت جميعها بالفشل.

وهم لا يزالون حتىٰ هٰذه اللحظة يبحثون عنه، رغم أن الطفلة التي ولدتها (سهلة) أصبحت الآن في الرابعة من عمرها!!

* * *

محاولة للانتحار

محاولة للانتحار

إنَّها تلك الفتاة الصغيرة التي قابلتها في ذلك المساء الشتوي. حين كنتُ ذاهباً في طريقي إلى مركز الإعلام، لحضور إحدى الندوات التي تتحدث عن تلوث البيئة. كان الوقت قد أزِفَ، والمواصلات أغلبها مشحونة بالأجساد البشرية، مما أفقدني الأمل تماماً في ركوبها. على أن أشرع في المسير، ووجدتني أختصر طول المسافة بانحيازي إلى طريق لم آلفه كثيراً برغم وحشته وخطورته، إنَّه طريق القطارات.

كانت حبات المطر تتساقط حين وجدتها تقف بين قضبان السكة الحديد تبحث عن شيء ما. وكانت أقدامي تتحرك بتلقائية فوق الفلنكات حين لوحت بيدي في الهواء قائلاً لها: احذري، القطار قادم.

هزَّت رأسها ولم تستجب لكلامي. لا أعرف ما الذي جعلني أقف فجأة وأستدير نحوها وأرفع من نبرات صوتي: يا أختاه، اخرجي من بين القضبان، فالقطار قادم.

ولما أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى، عدت أدراجي ومددت يدي بسرعة وجذبتها من ملابسها بقوة، وفي لحظة خاطفة كان القطار المتوحش يطلق صفيره المروع الذي مزق به السكون البعيد ومرَّ بجانبنا كالريح العاصف.

قلت لها: يبدو أنك تودين الانتحار.

انحدرت رأسها لأسفل، ولم تتكلم.

كانت الأمطار لا تزال تتساقط، وبعض الأقدام تفرقع فوق الفلنكات مسرعة، والهواء البارد يأتي من بعيد ليطلق صفيره الحاد في آذاننا ويصفع وجوهنا.

استوقفت كلمة (الانتحار) رجلين، ولعلهما شاهدا الموقف منذ بدايته. توجهت إليهما بالحديث قائلاً: كانت تقف في وجه القطار.

اقتربا منا، وقال أحدهما ـ وكان يلف رأسه بكوفية من الصوف، ويضع يديه

داخل معطفه الجلدي ـ لِمَ يا بنيتي؟ أتهون عليك نفسك إلىٰ هـٰذه الدرجة؟!

وقال الآخر في صوت أجش ـ وكان عريض الصدر، منتفخ العضلات ـ: مؤكد أن هناك شيئاً ما دفع بكِ إلىٰ هـٰذا المكان.

طأطأت الفتاة رأسها أكثر، وقالت من بين دموعها الغزيرة المختلطة بحبات المطر المتساقطة: نعم، لقد كرهت هـٰذه الحياة، وأريد أن أموت، فهـٰذا أفضل لي!!

قلتُ وأنا أبتسم: ألم تجدين موتة أخرىٰ ألطف من موتة القطار؟ إنَّ ثمة أنواعاً أخرىٰ من الانتحار أكثر وداعة ورحمة من هـٰذه الميتة البشعة!

ابتسم الرجلان، لكن الفتاة راحت في نوبة بكاء شديدة.

مؤكد أن في الأمر سر، وطاف في ذهني أن المسألة ربما تتعلق بموضع الشرف، مما دفع بها للتخلص من الفضيحة!

قال الرجل صاحب الكوفية، وكان وجهه يشع بالطيبة والوداعة: ما الأمر يا بنيتي؟ إنَّ عندي أربع بنات أصغرهن في مثل عمرك تقريباً.

وقال صاحب العضلات المتنفخة في انفعال صادق: إذا كان هناك شيء ما جعلك تحاولين الانتحار، فأخبرينا به، لعلَّنا نستطيع مساعدتك.

هزت الفتاة الصغيرة رأسها، وحاولت أن تتمالك نفسها، وراحت تروي قصتها.

* * *

كنا قد استأنفنا المسير مرة أخرىٰ تجاه محطة القطار التي اقتربت بأضوائها الساطعة، المتلألئة.

في هـٰذه اللحظات، لمحنا بعض الشباب المتسكع يرمينا بنظراته المريبة من بعيد، وقد ظنُّوا أنَّنا وقعنا علىٰ صيد ثمين، وعليهم أن ينتظروا بعض الوقت حتىٰ ينالوا نصيبهم هم أيضاً.

ولما ألمحت للرجلين، قال الرجل المتنفخ العضلات: دعك من هـٰؤلاء

المتطفلين، «والذي لا إلـٰه غيره» لو أنَّ أحدهم اقترب منها لسحقت رأسه.

شعرت في نفسي بالاطمئنان، فالرجلان ـ وإن كانت روح الشهامة قد دفعت بهما لأنْ يتعاطفا مع هـٰذه الفتاة المسكينة ـ إلا أنَّهما يمتلكان القدرة على الدفاع عنها إن لزم الأمر.

وعرفت أن الفتاة طالبة بكلية الطب، المرحلة الرابعة، وهي تتعلق بشاب يعمل معيداً بكلية الهندسة، وكان قد جمع الحب بينهما منذ أن كانت طالبة في المرحلة الإعدادية، لكن أباها رفض، وأصرَّ على الرفض، بل وأرغمها على الارتباط بابن عمها الطبيب.

وقدحاولت الفتاة أن تقنع والدها أن قلبها غير متعلق بابن عمها، رغم احترامها وتقديرها لشخصه، لكن الأب جعل إحدى أذنيه من الطين والأخرى من العجين على حد قولها.

أمَّا الأم، فلم تكن تملك شيئاً، فهي مغلوبٌ على أمرها وكل ما تستطيع أن تفعله هي محاولة إقناع ابنتها بمزايا الطبيب الشاب، ومن ناحية أخرى تحاول إقناع الأب بالشاب المعيد الذي تهواه ابنتها، عندها قررت الفتاة الانتحار، فلم تجد أفضل من مواجهة القطار.

تعجبت في نفسي، إلى هـٰذا الحدّ يهون الإنسان على نفسه، ويضحي بها لمجرد مشكلة تصادفه! مؤكد أنها مشكلة كبيرة وثقيلة عند الفتاة، لكن على أية حال، هـٰذا ضعف منها، وعدم قدرة على مواجهة الواقع، فاستسلمت من أول جولة ولم تحاول الصمود والدفاع عن موقفها للنهاية.

وهي باندفاعها في طريق الانتحار، تريد أن تعاقب والدها بأن يتألم بوخز الضمير ويشعر بالذنب، ويعلم حبيبها أنها كانت متمسكة به لآخر رمق في حياتها، وتصير شهيدة الحب الطاهر كما يتوهم بعضهن!

حدثتها عن روعة الحياة وجمالها. وعن دورها كطبيبة تستطيع أن تخفف آلام المرضى وتحنو على قلوبهم.

وتعجبت من كونها طالبة جامعية، وعلىٰ قدر كبير من الثقافة، بل وتحفظ الكثير من سور القرآن الكريم!

قلت لها: والله لو قضيت علىٰ حياتك بيديك من أجل محبوبك، لتزوج من بعدك ونسي ما كان.

ثم استعرضت أقوال النبي ﷺ والتي تحذِّر قاتل نفسه؛ لئلا يخلد في النار، وأنه سيظل يعذب بذات الأداة التي عذَّب بها نفسه في الدنيا، وربما كان كافراً إذا كان قد استحلَّ الانتحار.

قلت أيضاً: انظري إلىٰ ابن عمك الطبيب، وتأمليه في هدوء، بعيداً عن عواطف القلب وعواصفه، فربما تجدينه مناسباً جديراً بالارتباط بك، وتكونا سبباً في تقوية العلاقة بين الأخوين، والدك وعمك.

أمَّا إذا لم يكن مناسباً، وفيه من الأسباب الدوافع ما يجعل عقلك وقلبك زاهداً فيه، فعليك به. حدِّثيه حديث القلب للقلب، والعقل للعقل، فهو الوحيد الذي سيقدّر موقفك، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يخلصك من هـٰذا المأزق، أو الكابوس كما تتصورين.

عليك أن تصلي ركعتين استخارة، وتتجهي إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة والاستغفار لمحاولة قتلك لنفسك؛ لأنَّها ليست ملكاً لك.

عودي إلىٰ سير النساء الطاهرات من الصحابيات ﵁، ففيهن العبرة والعظة. انظري كيف تعلمن، وتخرجن من أعظم مدرسة عرفتها الأرض، إنَّها مدرسة النبي محمد ﷺ.

في هـٰذه اللحظات، كنا قد وصلنا إلىٰ مركز الإعلام، مقر الندوة، فاستأذنت منهم بينما الرجلان اصطحباها إلىٰ محطة الباص، ووجهها يشع بالبهجة والابتسام.

* * *

الفيروس المدمر

الفيروس المدمر

إنَّها فتاة رائعة الحسن، يشعر الناظر إليها أنَّها معجونة من اللبن الحليب. النور يسري في أنحاء جسدها، حين تنسدل أهدابها الكثيفة المقوسة لأعلىٰ، ترتجف القلوب، وتجفل، وتجف الحلوق، ويسري في العالم قشعريرة هي أشبه برعدة الكهرباء. لا فرق وقتها بين رجل وامرأة، أو فتىٰ يخطو أولىٰ خطواته نحو المراهقة، أو فتاة خرجت لتوها من مرحلة الطفولة.

ها هي تتأمل نفسها في المرآة، وقد انسكب شعرها الحرير، الكثيف خلف ظهرها.

بعين خيالها تحاول أن تستعير أعين الآخرين، إنَّها تهتز من داخلها حين تتأمَّل جمالها الصارخ.

تهمس للمرآة: أيتها المرآة السحرية، هل هناك أنثىٰ أجمل مني؟!

ويتبادر إلىٰ ذهنها ابنة خالتها (سلوىٰ) إنَّها أرق وأروع من أن يتصورها عقل إنسان، بيد أنَّها تحبسه عن الأعين، تقول لها دائماً: الجمال الدائم هو جمال الروح والقلب. أمَّا جمال الجسد، فهو أول ما يفنىٰ وينهار.

لذا، فقد آثرت الاحتفاظ بجمالها خلف سياج من قماش، حتىٰ يقدِّر الله لها الزواج بإنسان ملتزم، يعرف حق دينه؛ حتىٰ يحافظ عليها ويصونها، ويعينها علىٰ طاعة ربها.

كم دعتها (سلوىٰ) لأن تحذو حذوها وتفعل مثلها، لكن (نانسي) كانت كلما نظرت إلىٰ نفسها في المرآة، يعز عليها أن تحتبس داخل سياج من قماش حتىٰ ولو كانت من الحرير!!

تتذكر كلمات الإطراء التي تغرقها بها صديقاتها: أنت تشبيهن (ن. ع) تلك

المغنية المشهورة. فكانت تمط شفتيها وتقول في عدم اكتراث: جمالها مصنوع، فقد قامت بعمل جراحة تجميل أكثر من مرة، نعم هي جميلة إلى حد كبير، لكنه الجمال الذي استند إلى أيادي الأطباء.. أمَّا جمالي أنا، فهو طبيعي مائة في المائة. جمال بكر، لم تمتد إصبع إنسان نحوه.

لكن زميلاتها بالجامعة - فضلاً عن زملائها - كانوا يطلقون عليها اسم تلك المغنية الحسناء.

في البدء كانت تشعر بالضيق، لكنها - مع مرور الوقت - اعتادت على هذا اللقب، بل إنَّها صارت تتابع أخبار تلك المطربة. تشتري جميع المجلات التي تتحدث عنها، الألبومات الجديدة التي تحمل صوتها لينطلق في فضاء خيالها ويرسم بألوان الورد صوراً رائعة لفتى وفتاة.

* * *

ونانسي بقدر اهتمامها بتلك المغنية، بقدر ما كانت تراعي دراستها وتهتم بتفوقها. إنَّها تريد أن تكون فتاة (سوبر) تحمل كل مؤهلات التفوق، التي تمنحها حق الارتقاء والشموخ، في عالم جل اهتمامه المادة والجمال.

ساعات طويلة من الليل تقضيها أمام الشبكة العنكبوتية، تتصفح العالم، تحتفظ على ذاكرة الجهاز بأهم المعلومات التي تحتاج إليها: كتب، مراجع، مجلدات ضخمة، وأفلام بكل اللغات، وبرامج، وصور مضيئة لطبيعة خلابة، و.. كل شيء عن (ن.ع)!!

لقد كان الكمبيوتر - بالفعل - هو محور نشاطها، تعود من الجامعة لتواصل الساعات بالساعات دون كلل أو ملل.

ها هي تترك صورتها المطبوعة على صفحة المرآة لتخترق صفحة الكمبيوتر.

وفي لحظة، حين علمت من خلال أحد الإعلانات الملونة أن ثمة فيلماً خاصاً

جداً وساخن عن محبوبتها المشهورة، تستعرض فيه ملامح جسدها، وتمارس فيه الفعل الـ . . ، قررت أن تجتاز هـٰذه المنطقة الملغومة!!

إنَّ ثمة شيئاً ما يدفع بها نحو هـٰذا المكان.

ودخلت كالمسحورة، كالمحمومة، تنتقل من وصلة إلىٰ أخرىٰ، حتىٰ وصلت محطتها المنشودة. اتسعت عيناها في دهشة، والمطربة تترع عن جسدها الملفوف؛ ملابسها الناعمة، قطعة وراء قطعة، في حركات مثيرة! كانت مشدوهة، وفي أقل من لمح البصر، انطفأ الجهاز وأظلم العالم. وانقطعت عنها جميع السُّبُل.

* * *

حاولت إصلاح العطب، فلم تستطع، استعانت بشقيقها الأصغر، والذي يعشق الكمبيوتر، وله هو الآخر ملفات هامة جمعها من بعض الأصدقاء واحتفظ بها علىٰ الهارد؛ حتىٰ يعود إليها عند الحاجة.

لقد كان شقيقها ملتزماً، يتجول داخل أروقة الحاسوب، ويطير بجناحيه عبر فضاءات النت دون أن تتساقط منه ريشة واحدة، ويسبح في بحوره الواسعة، العميقة بمهارة فائقة، دون أن تبتل له شعرة واحدة، دائماً يعود إلىٰ قواعده سالماً، لا يعنيه تلك الإغراءات التي تصادفه، فهو يعلم أنَّ ثمة شياطين يقفون عند كل ناصية من نواصي النت، وعليه أن يكون يقظاً؛ حتىٰ لا يقع تحت أسرهم.

وهو الصغير، طالما تحدَّث إليها عن أحلامه الكبيرة، وطموحاته، إنَّه شقيقها الذي يشبهها إلىٰ حد التطابق، كان يدعو الله من قلبه أن يعينه علىٰ تحقيق كل أمانيه، ويكون عوناً علىٰ خدمة دينه ووطنه.

لما هرعت إليه، لينقذ الجهاز مما أصابه، بعد محاولات مضنية، استطاع أن يعيد الجهاز إلىٰ حالة اليقظة، لكنه لم يستطع استعادة الملفات الهامة التي يحتفظ بها علىٰ الهارد.

ضاع كل شيء، وصار الهارد ناصع البياض، فقد غزته فيروسات مجنونة، بينها فيروس مدمر قاتل اسمه (ن. ع)!!

قال لها: إنَّ للوطن أعداء يكرهوننا ويعملون دائماً على تخريب حياتنا وعقولنا، وهم دائماً يبثون مثل تلك الفيروسات الفتاكة لتدمر أجهزتنا، لكننا لن ننحني أبداً لهم، ولن ننهزم بإذن الله.

لقد كانت لحظة فاصلة في حياتها، جعلتها تعيد النظر إلى نفسها من جديد، ماذا لو أن هذه الفيروسات قد تحوَّلت إلى كائنات حيَّة وراحت تنهش جسدها؟ بل ماذا لو انقطع عنها تيار الحياة وماتت كما انقطع تيار الكهرباء عن الكمبيوتر؟ كيف تلقى ربها؟ وهذا الجمال الذي تتباهى به أمام الخلائق، ما مصيره؟ ماذا يؤول حاله بعد ساعات من دفنه؟!

كان عليها أن توازن بين جمالها الذي وهبه الله لها، وبين علاقاتها بالمجتمع والناس، فامتثلت لنصائح شقيقها الأصغر وقررت أن تفرّ إلى الله.

واتصلت بابنة خالتها (سلوى) لتعلن لها بمنتهى القوة: (سلوى)، لقد قررتُ أمراً في غاية الأهمية: قررتُ أن أرتدي الحجاب، وهتفت (سلوى) من أغوار قلبها: حقاً، الله أكبر. وارتدت الحجاب، وصارت أجمل وأبهى مما يتصوره عقل!

* * *

الكلب .. وبائعة اللبن

الكلب..وبائعة اللبن(١)

قالت جدتها العجوز في صوت متهدج: لا تتأخرين يا حفيدتي، الليل على الأبواب، والطريق موحش.

ابتسمت (صباح) وقالت: حاضر يا جدتي، لن أتأخر.

ثم مسحت على ظهر الجاموسة ورمت إليها ببعض أعواد الذرة الخضراء، وصاحت: هيا يا محبوبتي، ها هو طعامك المفضل بالهناء والشفاء.

مالت الجاموسة على أفرع الذرة، وراحت تلتقطها وهي تنظر إلى الصغيرة في امتنان، بينما وليدها كان يضع فمه الجميل على الضرع ويمتص اللبن وهو يهز ذيله الصغير، ثم توجهت (صباح) نحو الدجاجات وحلَّقت عليها بذراعيها قائلة: لق لق.. لق. بيتك، بيتك.

وراحت الدجاجات تقفز لأعلى وتطلق ضجيجها ثم دخلت عشتها، وهدأت أصواتها تماماً.

صاحت الجدة العجوز: هيا يا حفيدتي، المساء قد حل، والطريق أمامك طويل.

مسحت الصغيرة على رأس الكلب (ركس) وقالت: حاضر يا جدتي، لم يعد هناك شيء.

ثم همست في أذن (ركس) قائلة: ركس، حافظ على الدار، احرسها من اللصوص والمجرمين، وإياك إياك أن تغادر الدار حتى أعود.

راح (ركس) يهز رأسه يميناً وشمالاً، ويقفز لأعلى كأنه يحتج.

قالت صباح وهي تربت على رأسه: أنا أعلم أنك لا تود فراقي، لكنني تأخرت اليوم، والليل قد هبط على القرية.

---

(١) هذه القصة حدثت بالفعل.

حملت الصغيرة وعاءً مملوءاً باللبن وقبّلت رأس جدتها، ولوّحت بيدها إلىٰ (ركس) الذي لمعت عيناه وراح يحرك ذيله وهو يطلق نباحاً خفيفاً.

فقالت الصغيرة: لا، لن أتأخر يا ركس.

كانت الصغيرة (صباح) سعيدة وهي تحمل اللبن علىٰ رأسها وتسير علىٰ الطريق الزراعي نحو المدينة القريبة.

كان الفلاحون عائدين من مزارعهم وحقولهم.

قال لها العم (سليمان) وهو علىٰ ظهر حمارته ويجر وراءه بقرتين وجاموسة: أسرعي.

ضحكت الصغيرة، وقالت: حاضر يا عم سليمان.

كان اللبن داخل الوعاء يهتز. لماذا لم يأت معك (ركس)؟ هل نام مبكراً؟

أطلقت البقرة عقيرتها بالخوار، بينما الجاموسة كانت تحاول التقاط بعض الأعشاب من علىٰ حافة القناة.

نظرت (صباح) إلىٰ حقول الذرة، كانت الأعواد تنتصب بطول المدىٰ كأنها جيوش جرارة مدججة بالسلاح.

حاااا.

وخز العم سليمان حمارته قائلاً: الله معك يا بنيتي.

تورد وجهها، وقالت: شكراً لك.

راحت الصغيرة تُسْرع الْخُطَىٰ، ثم عبرت الكوبري القديم وهي تنظر إلىٰ مياه النهر الجاري، كان القرص الأحمر قد غاب في الأفق البعيد.

أخيراً، كدنا نيأس. قالتها إحدىٰ النسوة اللائي ينتظرن اللبن. وراحت الصغيرة تفرغ اللبن وهي تبتسم.

قالت السيدة أم عزة: تعالي لتنامي عندي، الظلام كثيف، والطريق إلىٰ القرية بعيد.

هزت الصغيرة رأسها، وقالت: لا أستطيع أن أترك جدتي وحدها، ولا بد أن أطمئن على (ركس).

حملت الصغيرة الوعاء الفارغ، وقالت لنفسها: (ربنا موجود)، ثم مشت.

* * *

في الطريق كان الظلام يلف الأشجار، وأكواخ الخوص، وأعواد الذرة.

راحت الصغيرة تقرأ (آية الكرسي)، وكل السور التي تحفظها، كان لوقع خطواتها صدى، كلما خطت خطوة سمعت صوتاً، فكانت تسرع أكثر وأكثر، والخوف يملأ قلبها، قالت: ما أشد الظلام، أين أنت يا جدتي، دعواتك لي.

الهواء يجري بسرعة، يصفع الأوراق الخضراء. شعاع من الضوء الخافت يأتي من بعيد، حقول الذرة صارت أشباحاً تتراقص مع موسيقى الليل، ها هي القرية تقترب، لأسرع الخطى بعض الشيء، أحياناً يكون الجري أفضل وسيلة للنجاة، فجأة.. اهتزت بعض أعواد الذرة ومالت.

خرج شبح ملثم، هل تحولت أعواد الذرة إلى أشباح؟ لعلها تحلم.

صرخت الصغيرة، لكن يداً خشنة وضعت على فمها.

صه، ولا كلمة.

انتفض جسدها الصغير من شدة الخوف.

كان هناك آخرون، ملثمون أيضاً.

قال أحدهم: أخرجي كل النقود التي معك!

أومأت برأسها علامة الموافقة.

صاح آخر: وهذا القرط الذهبي، إنه يعجبني كثيراً.

أجابت المسكينة برأسها. أخرجت كل النقود التي معها، القرط الذهبي، خاتم صغير من الذهب.

ثمة بيوت قريبة، لو استطاعت أن تصرخ لربما خرجوا لنجدتها، ولكن كيف

ذلك؟! وهل هـٰؤلاء المجرمون سيتركونها حتىٰ تعلن عن استغاثتها؟ إن أحدهم يمسك بمدية تلمع رغم الظلام.

يا إلـٰهي، ماذا يمكن أن أصنع؟

ليأخذوا كل ما معي، فقط يتركوني، لا أحد يتعرض لي بسوء، أريد أن أعود إلىٰ جدتي.

زمجر أحدهم: هيا.

في هـٰذه اللحظة طار شيء ما في الهواء، وهجم بضراوة علىٰ اللص.

مَنْ؟ ركس!!

قبض (ركس) علىٰ اللص قاطع الطريق بأسنان من حديد، بينما فر الآخرون وهم في حالة من الهلع والخوف.

حاول اللص أن يتملَّص، لكنه لم يستطع، كان (ركس) يقبض علىٰ ذراعه وفي يده النقود التي استولىٰ عليها والقرط الذهبي.

صرخ اللص من شدَّة الألم: آااه، آاااه. راح يصيح بعلو صوته ـ لعل أحد يستطيع إنقاذه ـ: انقذوني، آااه، يا ناس.

انفتحت الأبواب والنوافذ.. وراح الناس يسألون ويستفسرون: ما هـٰذا الصراخ؟ يا تُرَىٰ ماذا حدث؟ هات المصباح يا أم (عليّ). بسرعة.

وتجمع الناس من كل حدب وصوب، بعضهم يحمل مصابيح تبدد كتل الظلام المتراكمة، والبعض الآخر يمسك بهراوة أو فأس.

كان الكلب (ركس) قابضاً بأنيابه الحادة علىٰ ذراع اللص. أمسك الناس بالمجرم قاطع الطريق بعد أن عرفوا الحكاية من فم الصغيرة وأوسعوه ضرباً ولكماً، شدُّوا وثاقه ثم سحبوه إلىٰ الشرطة، وهناك اعترف المجرم بمحاولته وكشف عن العصابة التي تعمل معه.

* * *

النهاية المحتومة

النهاية المحتومة

كانت على قدر كبير من الْحُسْن، طويلة كنجمات (هوليود)، لها عينان في لون السحب البعيدة، هما نفس العينان اللتان ورثهما عنها طفلاها الصغيران، بنفس الأهداب الكثيفة، وبنفس الاتساع أيضاً؛ بحيرتان زرقاوان تعكسان العالم في مرح وسعادة.

نعم، لم تكن المرة الأولى التي يتصادف فيها أن تخرج إلى البلكونة المواجهة لشقتي. فقد كانت تقوم برعاية بعض الحمامات الصغيرات، وأيضاً تمتلك أقفاصاً ذهبية لعصافير في لون الزهور تشدو كثيراً، وتصدر نغمات شجيَّة محببة. أمَّا هو، زوجها، فقد كان يبدو كما لو كان أصغر منها سناً، رغم أنني علمت ـ فيما بعد ـ أنهما من نفس المرحلة السنِّيَّة.

كان زميلاً لها بنفس المدرسة، وكان رومانسياً حالماً، يذوب فيها عشقاً وهياماً.

كان له وجه طفل، متسق الملامح، فيه مسحة من جمال، رغم جسده النحيل، والذي كان يشتد ذبولاً يوماً بعد يوم.

حتى إنَّ الكثير من الشباب والفتيات كانوا يرمقونها بأعينهم، ويمصمصون شفاههم في تعجب للأقدار التي جمعت بينهما.

وكان بعض المراهقين من أبناء الحي يقفون دائماً على ناصية الشارع، بجوار عمود النور الملاصق للبناية، ويرتفع ليصل إلى الشقة التي يسكنان فيها، كانوا يأتون ليدخنوا السجائر ويطلقون نكاتهم البذيئة، ثم يفرقعون بالضحكات المستهترة، وكان البعض منهم يوحي بكلامه أن مثل هذه الزوجة الصغيرة الممشوقة، التي تتفجر أنوثة وبهجة. هي في حاجة ـ بالفعل ـ إلى شاب قوي البنيان، يستطيع أن يشفي غليلها ويلبي طلباتها!!

بيد أن هناك شاباً سمعته ينكر عليهم مثل هـٰذا الكلام قائلاً لهم بحدَّة: كفىٰ، علينا ألَّا نخوض في مثل هـٰذه المناطق المحرمة، حتىٰ لا نحمل أوزاراً علىٰ أوزارنا. يكفي ما نحن فيه!

فيرد عليه آخر ضاحكاً: يبدو أنك وقعت في أسر جمالها!

لكن فجأة تختفي الأصوات، وتذوب همساً، وصمتاً، ثم تتصاعد النظرات إلىٰ أعلىٰ في شوق ولهفة.

لقد خرجت إلىٰ البلكونة، وقامت بتشغيل الكاسيت علىٰ أغنية شبابية، وفي يدها بعض حبات الترمس. لحظات ثم دخل زوجها بملابسه الداخلية فبدا كطفل صغير يبتسم في وداعة، وفي يده طبق مملوء بحبات الترمس.

كانا في عالمهما ـ هـٰكذا يبدوان ـ وهما يتطلعان إلىٰ الأفق البعيد، ويتناجيان.

* * *

دقت باب مكتبي بالمستشفىٰ، ثم دخلت، ثم قمت لاستقبالها مُرَحِّباً، فقد كانت المرَّة الأولىٰ التي تأتي فيها إلىٰ هنا.

قلت: خيراً، هل من خدمة؟

ابتسمت في هدوء، وقالت: زوجي حالته سيئة جداً. وعلمنا أنَّك تعمل هنا بالمستشفىٰ، فربما تستطيع خدمتنا.

وأشرت إليها أن هيا، ثم أسرعتُ أمامها نحو صالة الاستقبال، وهناك كانت صرخاته تمزق سكون المستشفىٰ.

حاولت تهدئته، وقلت له: لا عليك، الأمر بسيط إن شاء الله.

ثم قمت بالاتصال بالطبيب المناوب، والذي جاء علىٰ الفور، وقام بالكشف عليه وإعطائه أمبول ليسكِّن تلك الآلام المتوحشة.

استأذنت الطبيب أن يكتب له تذكرة دخول للقسم الداخلي؛ حتىٰ يصبح تحت

إشراف طبي كامل.

ودخل القسم الداخلي، ومكث فترة ليست بالقصيرة، كنت أصعد إليه، وأوصي به خيراً، وأقدّم كل ما بوسعي لأجل راحته، وتلك عادتي مع أناس ربما لا تربطني بهم أي علاقة، اللهم إلا أنهم من نفس الحي الذي أقطن فيه، أو جاءوا إليَّ عن طريق أحد الأصدقاء.

وكانت زوجته تأتي إليه أحياناً، وأكثر الأحيان لم تكن تأتي. مع مرور الوقت كان يأتي إلى مكتبي، ثم نخرج إلى الحديقة الخلفية للمستشفى فقد كانت أشد هدوءًا، ثم يسرد لي نبذة عن حياته، وعلاقته بزوجته.

لقد كان ثمة حزن يكتسي نبرات صوته، وإن كانت عيناه اللامعتان تحاولان الهروب. قال لي: إنَّ زوجته تحب!!

صدمتني الكلمة، وقلت في نفسي: لعله يقصد علاقتها بأهلها أو وظيفتها مثلاً، فقد كانت تعمل في حقل التدريس بإحدى مدارس التعليم الأساسي.

ولما قرأ الحيرة والتساؤل في عيني، قال: زوجتي تحمل معهد فني، وقد ألححت عليها كثيراً أن تكمل تعليمها، واستطعت أن أوفر لها كل سُبُل الراحة. نعم، تبادلنا الأدوار، صرت أقوم أنا بالطبخ، والكنس، وهدهدة الصغار؛ حتى يتسنَّى لها المذاكرة والنجاح.

وقد استطاعت أن تواصل نجاحها بتفوق حتى حصلت على ليسانس آداب، وتود أن تقوم بعمل دراسات عليا، زميل لها أقنعها بذلك.

قلت: وأنت؟

قال: كان يكفيني شهادتها الجامعية؛ لتحسن من مستواها الوظيفي، لكنها تحلم، وأحلامها كبيرة، وقد جاءت على حساب البيت والأولاد.

كنت أشمّ من كلامه، تلك الطيبة الناصعة البياض، التي قلَّما نجدها في هذا

الزمان الذي نعيشه، حتىٰ إنَّني كنتُ أشعر نحوه بالضيق والاشمئزاز من فرط طيبته، والتي تبلغ أحياناً حد السفه والسذاجة، وكنتُ أحاول أن ألتمس له الأعذار فهو يحب زوجته إلىٰ حد الوله والجنون، ويريد أن يحقق لها كل أسباب السعادة التي تسعىٰ إليها.

وهي كانت تأخذ ولا تحاول أن تمنحه شيئاً، أي شيء يشعره بعاطفتها نحوه. كانت جادة معه، لكنها امرأة شديدة المرح مع زملائها وزميلاتها، كان يخشىٰ أن تفلت من بين أصابعه، فكان يحاول الالتصاق بها أكثر. تبدَّلت العلاقة الدافئة إلىٰ جسد بارد، ونظرات تحمل في كثير من الأحيان حدة وقسوة. حتىٰ وهي تطلب منه أن يتنازل في سبيل راحتها.

قال لي: إنَّه كان يأتي إلىٰ البيت، زميلها الذي يعمل معها، وهو بجانب عمله الوظيفي كان يمتلك بزاراً لبيع الملابس المستوردة والإكسسوارات الحريمي، وكان يقدم إليهم الملابس الفاخرة وهدايا للصغار.

كان يشعر نحوه بكراهية شديدة، ويتمنَّىٰ من أعماق قلبه لو استطاع أن يقبض علىٰ رقبته، ويقوم بكسرها!! لكنه بدلاً من ذلك كان يبتسم ابتسامة بلهاء، ويردد كلمات غير مفهومة يحاول أن يشكره علىٰ تلك الهدايا الثمينة.

وكان يضطر أن يتركهما أكثر الأحيان، فهما زميلان علىٰ أية حال، والرجل مشكوراً يقوم بجهد كبير في محاولة لنقلها إلىٰ المدينة بدلاً من السفر إلىٰ بلاد الله البعيدة.

لقد كان الزوج عنده مهارة فائقة علىٰ عمل العصائر اللذيذة، وهـٰذا ما كانت تؤكده الزوجة، فكان يقوم ليصنع لهما عصيراً مدهشاً.

ولقد راودته فكرة شيطانية أن يضع في كوبه المثلج سماً ليتخلص منه. ويقول لنفسه: «ماذا يحدث لو صفعته علىٰ وجهه، وقلت له: لا تأت إلىٰ هنا مرة أخرىٰ، وابتعد عن طريق زوجتي»!

لكنه لم يكن يملك الجرأة على ذلك، فزوجته تمتدح مواقفه النبيلة، تقول: إنَّه شهم، كريم، مثقف. وهو ـ بجانب ذلك ـ تاجر ناجح، استطاع أن يهزم الفقر، ويحقق لنفسه قدراً من الثروة.

أمَّا زوجها المسكين، فكان يضطر للعمل مساءً على ميكروباص، ليعود في آخر الليل حاملاً جسده المهدود، المنهك، وجنيهات قليلة يحاول أن يدخل بهم السرور على قلب زوجته.

حتى كان ذلك اليوم.

* * *

كنتُ أطل من البلكونة حين وقفت شاحنة كبيرة في وسط الشارع، متكدسة بقطع الأثاث. لقد كانت جارتنا الحسناء تساعد في نقل المفروشات، بمعاونة أشقائها وإخوتها البنات.

كنا في صباح الجمعة، قلت في نفسي: «ثمة مشاكل بين الزوجين، ومحاولات كثيرة للصلح بينهما، لكنها جميعاً باءت بالفشل. ها هي وأسرتها يقومون بسرقة العفش»!! لا أعرف ما الذي جعلني أخمن ذلك!

ناديتُ على زوجتي، فأخذتها الدهشة، ووجدتها تشاركني الظن.

قلت له: للجيرة حقوق، وعلينا أن نتصل بالزوج المسكين حتى يأتي بسرعة، ويضبط أثاث بيته قبل فوات الأوان.

لكن زوجتي صاحت قائلة: انظر.. انظر، أليس هذا صاحبك؟

وكانت المفاجأة أن الزوج كان يحمل معهم قطع الأثاث، ويقوم بنقلها إلى العربة.

أطلقت صفيراً خفيفاً، فرفع رأسه إلى أعلى مبتسماً، وأومأ برأسه بما يعني أنه سوف يشرح لي القصة فيما بعد.

مضت أيام ثم حضر إلىٰ مكتبي بالمستشفىٰ .

* * *

قال لي : لقد أصيبت زوجتي بمرض لم نستطع له علاجاً .

أخذتني الدهشة ، لقد كانت زوجتك في غاية النشاط والحيوية وهي تحمل متعلقات الشقة مع شقيقاتها !

قال لي : اصبر يا صديقي ، لقد اكتشفنا أن المرض الذي أصابها كان بسبب عمل (سحر) أغلب الظن أن المرأة العجوز صاحبة البيت هي التي قامت بصنعه . ولم يكن أمامنا إلَّا الخروج من ذلك المكان والانتقال إلىٰ بيت أبيها حتىٰ ينفك السحر ، وتعود إلىٰ طبيعتها . ثم إنَّنا ربما نقوم ببناء شقة في بيت أبيها ؛ توفيراً للإيجار ، واقتصاداً للمصاريف ، وملاذاً من تلك الأرملة المشاكسة صاحبة المنزل .

قلت له : ما دامت بخير ، فهٰذا ما نرجو ونتمنَّىٰ .

لكن قلبي لم يكن مطمئناً لهٰذا الكلام العجيب ، فصديقي إنسان طيب ، مسالم إلىٰ أقصىٰ درجة ، وأغلب الظن أن هناك مفاجأة تنتظره .

وقد صدق ظنِّي عندما جاءني وقد ظهر علىٰ وجهه الشاحب علامات الحزن والكآبة ، قائلاً لي : إن زوجتي تقول لي بصراحة : إنَّها لم تعد تحبني ، وأننا يجب أن نفترق في هدوء !

شعرت نحوه بالأسىٰ ، وقلتُ في نفسي : (مسكين) ، وقد تذكرت حديثاً للنبي ﷺ يقول : «**أيّما امرأة طلبت الطلاق من زوجها من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة**» .

أجمعت أمري علىٰ محاولة للصلح ورأب الصدع ، وخاصة أن ثمة أطفالاً لا ذنب لهم .

اجتمعنا ، وبعض الرجال الطيبين ، ورحنا نستخدم كل طريقة من شأنها أن تعيد المياه إلىٰ مجاريها ، وتحقق لهما السعادة .

لكنها قالت، وهي تضغط على الحروف بشدَّة: إنَّه لا يصلح أن يكون زوجاً!!
تبادلنا نظرات الدهشة.

نظرت إليه في تحدٍّ، وقالت: نعم، هو إنسان طيب، لكن طيبته تقتلني، إنَّها طيبة ممقوتة، أبغضها، ليته عاملني بشيء من القسوة، أو أظهر شيئاً من الغضب والانفعال ولو مرة واحدة.

قُلْتُ في نفسي: «ليس هـٰذا هو السبب الوحيد، مؤكد أن هناك أسباباً أخرىٰ، فالزوجة علىٰ قدر كبير من الجمال، وهي الآن تحمل مؤهلاً دراسياً أعلىٰ منه، إنَّها من ذلك النوع المتمرد الذي يبحث عن رغباته. هي بحاجة إلىٰ رجل قوي، عنيف يشعرها بضعفها وأنوثتها».

لكنني عدتُ مرة أخرىٰ لأقول: «الدين، وما أدراك ما الدين، إنَّه الحصن الحصين». وخرجنا، ولم نستطع التوصل إلىٰ شيء.

ومرت الأيام، وحدث الانفصال المتوقع.

* * *

في غضون أعوام قليلة، كان صاحبنا قد تزوج بأخرىٰ، بمعاونة مجموعة من زملاء العمل بالشركة التي يعمل بها. جمعوا من جيوبهم، وساعدوه في اختيار زوجة مناسبة، ليست جميلة بقدر ما كانت تحمل قلباً غاية في الطيبة والنقاء.

صارت أماً لطفليه، ثم ما لبثت أن أنجبت له طفلاً آخر.

وقد كان يشعر بتمام الرضىٰ بعد أن استعاد الكثير من حيويته ونشاطه مرة أخرىٰ.

* * *

أمَّا زوجته السابقة، فقد أخبرتني زوجتي أنها تزوجت من زميلها الذي كان يذهب عندهم، رغم أنه متزوج وعنده ثلاث بنات، كان معتقداً أنَّها ستنجب له

الولد، لكن ربك أخلف ظنه وأنجبت له بنتاً رابعة، وهو يعتدي عليها دائماً بالسبّ والشتم، والضرب أغلب الأحيان، حتىٰ إنَّها طلبت الطلاق، ولم تستطع الحصول عليه حتىٰ تلك اللحظة.

فقلتُ في نفسي: «سبحان الملك القادر».

* * *

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
• المقدمة	٥
• على نغمات المحمول	١١
• ابنة رجل مهم	١٩
• سر غشاء البكارة	٢٥
• الدخول في الممنوع	٣٣
• شارة الخطر	٣٩
• تحولات الجسد	٤٧
• أسباب للسعادة . . أسباب للشقاء	٥٣
• إنَّها صديقتي!	٦٣
• ليلة الدخلة	٧١
• العاصفة	٧٧
• شريط الفيديو	٨٥
• ضحية الفن	٩٣
• نظرات أكثر واقعية	٩٧
• السقوط	١٠٣
• الحب . . . وأشياء أخرى	١٠٩
• بوي فرند	١١٧
• هذا هو الإدمان!	١٢١
• أرجوك سامحني	١٢٥

الموضوع	الصفحة
• بائعة التين	١٣٣
• قبض الريح! أو: «حكاية سهلة اليتيمة»	١٣٩
• محاولة للانتحار	١٤٥
• الفيروس المدمر	١٥١
• الكلب .. وبائعة اللبن	١٥٧
• النهاية المحتومة	١٦٣
• **فهرس الموضوعات**	١٧٣

* * *

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤

Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

حكايات
للبنات